تاريخ

بابل واشور

تأليف جميل افندي نخلة المدوَّر

عُفِيَ عنهُ

وقف عليهِ وصحَّحهُ الشيخ ابرهيم اليازجي

طُبع في بيروت سنة ١٨٧٩ مسيحية

بسم الله الحيّ الباقي

الحمد لله الذي جعل لنا نبأَ المتقدمين عبرةً وذكرى . ودلّنا بزوالهم على انهُ هو الباقي الذي سيعيدهم تارةً اخرى . اما بعدُ فان علم التاريخ لمن اجلّ العلوم مقدارًا . واوسعها مدارًا . بهِ تعلم الخِطط والممالك . وسياسة الملوك والمالك . وما كان للغابرين من الشعوب والقبائل . والانساب والمنازل . والعقائد والمذاهب . والتجارات والمكاسب . والصنائع والعلوم . ما بين منطوقٍ ومفهوم . الى غير ذلك من الفوائد الكثيرة . والمطالعات الاثيرة . ولشؤم الطالع الذي عمَّ هذه الاقطار . وما توالى عليها من الحوادث والاقدار . قد طمس الجهل فيها على آثار هذا العلم الشريف . وضرب الفقر على ايدي ارباب التدوين والتأليف . فمن عهدٍ كذا من الزمان لم نجد من دوّن سِفرًا يُسفر عن احوال ايامهِ واهلها . ولا من بحث في تواريخ الامم السالفة ونقب عن احوالها واصلها . من نحو الاشوريين والمصريين . وغيرهم من الشعوب الغابرين . حالة كون الافرنج مثلاً قد بحثوا في ذلك البحثَ العميق . وامعنوا في التنقير والتدقيق . وقد احصوا من تلك الحقائق ما لامزيد عليهِ لباحث . وقرّروا كثيرًا مما غرّب من الآثار والحوادث . فتراهم يرحلون في طلب الوقوف على ما في هذه البلاد من الآثار . ويتجشمون لذلك مشقة الاسفار واقتحام الاهوال والاخطار . خلاما هنالك من صرف النفقات الجزيلة . ومعاناة الاتعاب الطويلة . حتى افضى بهم الامر الى احتفار جبالٍ من الانقاض والاتربة . لكشف ما بقي تحتها من الآثار والاخربة . فشرحوها للمطالع شرحًا واضحًا عن عيان . يظهر بهِ حال تلك الامكنة وما كان عليهِ اهلها في ذلك الزمان . وبيان واضعها وهادمها وما وقع بين ذلك من الحِدْثان . والى اليوم ما برحوا يجدّون في البحث عما بقي مستترًا وراء ظل القِدَم وتقلبات الدهر . وكثيرًا ما نقلوا من تلك الابنية العظيمة والصخور الضخمة فحملوها على مراكب البر والبحر . بحيث لو جمعت تلك المنقولات لكانت مدينةً كبيرةً من اعجب الابنية واسناها . قد حُملت من الشرق الى الغرب فرست هنالك ولن يبرح الى الابد مرساها . فقد استأثروا بمعظم ما اشتهر من مفاخر اجدادنا . وزينوا بلادهم بما دفنته الدهور من آثار بلادنا . ولا اقول الآن تلك المآثر الجليلة . والمفاخر الاثيلة . قد اصبحت عند من يقوم بحقها ويقوّمها باثمانها . ولا يرضى لها ما رضيناهُ من اهمالها

وهوانها . هذا واني لما رايت تقاعد ابناء الشرق عن سلوك مثل هذا السبيل . وعدم احتفالهم بما ينبغي من الجدّ لادراك هذا الشان الجليل . حدّثتني نفسي ان اتطاول على ما بي من القِصَر . فاجني لهم بعض ما وصلت اليهِ يدي من داني ذلك الثمر . لعلهم اذا اعجبهم الامر سموا فيهِ الى اعلى مما قصدت . فاستفيد من فضلهم بعد ذلك اكثر مما افدت . فاستصبحت بنبراس اولئك القوم الافاضل . واغترفت ما يسع مثلي اغترافهُ من سلسال تلك المناهل . والفت هذا الكتاب في تاريخ اشور وبابل . وقد جمعتهُ عن اشهر اقوال المؤلفين في هذا الاوان . مما وصلوا الى تحقيقهِ بعد شهادة الاخبار والعيان . وقسمتهُ الى قسمين احدهما جغرافيٌّ يبين الحدود والمساحات . وما يتعلق بذلك من الابنية والمدن والهياكل والساحات . والآخر تاريخيٌّ ذكرتُ فيهِ ترجمة من اشتهر من ملوكهم وعظمائهم . وما اشتهرَ لهم من الفتوحات وعظائم الاعمال الى حين انقضائهم . والمامول من ارباب النقد غض الطرف عما يرون فيهِ من الخلل . والله المسؤول ان يوفقنا الى السداد هو حسبنا وعليهِ المتكل .

مقدّمة

قد اختلف المؤرخون في بيان اصل البابليين والاشوريين واشياء كثيرة مما يتعلق ببداءة امرهم فذهبوا في ذلك مذاهب شتى لا تتلاءم ولا تتقارب حتى توصّل الافرنج في هذا الزمان الى حلّ الكتابة المعروفة بالمسمارية وهي الحروف الاشورية فتبيّن لهم كثيرٌ مما كان المؤرخون يختلفون فيهِ من تلك الحقائق وجزموا بكثير منها عن يقين لانهم راوا حقيقتها مسطرة على جدران الابنية التي كشفوها في تلك النواحي فكانت اصدق شاهديها كان من امر تلك الابنية وواضعيها وتواريخها الى غير ذلك مما يقرّرها باجلى وضوح . وكان كثيرٌ من متقدمي المؤرخين الذين يوصفون بالثقة والشهرة يجعلون مملكة البابليين او الكلدان نفس مملكة الاشوريين وذلك كما فعل هيرودوطس المؤرّخ اليوناني المشهور حيث يقول في تاريخهِ ما ترجمتهُ ان اشور تشتمل على كثير من المدائن الكبيرة الآن اسمى تلك المدائن مجدًا وامنعها عزةً مدينة بابل وقد اتخذها ملوك تلك البلاد عاصمة لهم منذ خراب مدينة نينوى اه‍ . والصحيح غير ما ذكرهُ فانهُ علم بعد البحث ان كلاًّ من بابل ونينوى كانت عاصمةً لممالك في زمنٍ واحدٍ وقد كانت بين المدينتين حروبٌ متواترة . ويمكن ان يُستدَلّ من ذلك ان ما رواهُ عن فنون الاشوريين وتاريخهم اصلهُ للكلدانيين او ما رواهُ عن عوائد البابليين وعنائدهم هو للاشوريين الى غير ذلك مما يتجاذبهُ طرفا الوهم والصحة على ما ستراهُ في مواضعهِ ان شاء الله تعالى.

وانما كان منشأ هذه الاختلافات على الاكثر كتّاب الفرس الذين شحنوا التاريخ بحكايات فارغة خرافية لا يوثق بها وجعلوا كتاباتهم هذه في بلاط ملوكهم فكان كل من اراد الاطلاع على شيءٍ من اخبار هاتين المملكتين يستعين بها فينقل عنها ما ارادهُ حقيقيًّا كان او غير حقيقي وتداولت هذه الحكايات الطويلة ألسنة العامة فزادوا عليها وحرّفوا منها حتى اصابها مع تمادي الازمنة وتكرر الايام نفس ما اصاب تلك القرون والآثار من الانقلاب والاضمحلال . وحسبك من ذلك انهم رجعوا بُملك نينيب فلأصر الذي سمّوهُ نينوس سبعة قرون وبملك سمّورامِيت امراة بعلوخوس الثالث التي سمّوها سميراميس اثني عشر قرنًا وقالوا انها امراة نينوس المذكور ونسبوا اليها بناء سور بابل وهيكل بعلوس والقصرين الملكيين والحدائق المعلقة احدى العجائب ورصيفي النهر وغيرها من الاعمال

الكبيرة والحروب العجيبة التي تذكر في الكلام عن بابل وسميراميس وبختنصر وغيرها . ولما قصد اكتزياس الكنيدي طبيب ارتكزرسبس منيمون الفارسي جمع تاريخ لاشور باليونانية نقل عن الكتب الفارسية التي في بلاط الملك الخرافات المذكورة وهي المتداولة بين العامة فاقتبسها كتّاب اليونان من بعدهِ وما زالوا يتداولون ذكرها ويتناقلونها هم وغيرهم من امم شتى الى عصرنا الحالي. لاجرم ان مملكتي بابل واشور هما من اقدم الممالك فخرًا ونسبةً ومن اشهرها تاريخًا واعلاها عزةً ومجدًا وقد بلغتا من العظمة والرفعة في المشرق على عهد بختنصر ما بلغت مملكة الرومان في المغرب على عهد كبراء القياصرة ونرى ايضًا ان لهما تاريخًا متوغلاً في القِدَم مع قطع النظر عما يقولهُ مؤرخو الكلدان الذين يزعمون ان ملكهم بقي ما يزيد على ٤٧٣٠٠٠ سنة وذلك منذ تملك ألوروس قبل الطوفان الى سقوط داريوس واضمحلال دولتهم . وقد اشتغل كثيرون من المؤرخين بتدوين تاريخ البابليين والاشوريين ولكن اختلفت فيهِ مذاهبهم وتفرقت آراؤهم على انحاء متباينة ولم يكن جهد من عُني في كل عصر بتصحيح خطائهم الاّ عبثًا وضياعًا وربما كان تصحيح بعضهم مؤديًا الى خطاءٍ آخر واحداث وهمٍ جديد . وما زالت الناس على ذلك الى ان كُشِفَت اخربة مدائن بابل واشور الكبيرة وتُوصِّل الى قراءة الكتابة الاشوريّة على ما اسلفنا ذكرهُ فتسنى لنا من ثمَّ الوقوف على كثير مما غمض من اخبار هاتين المملكتين وايضاحها عن يقين جازم

ومعظم ما ورد في وصف بابل واشور وتاريخهما ما هو مدون في مصنفات هيرودوطس اليوناني وديودوروس الصقلي نقلاً عن اكتزياس الكنيدي المقدم ذكرهُ وبيروسوس الكلداني . والاولان قدما بابل في اواخر القرون الوثنية وكانت قد انحطت عن مجدها فوصفا ما عايناهُ من ابنيتها ولكن ليس في كلامهما ما يُعرَف بهِ اصل سكانها الاولين . على ان الاول منهما احقُّ بالثقة من الثاني لما ستعرفهُ وهو الذي لقبها عاصمة اشور الاّ انهُ لم يرد في كلامهِ شيءٌ عن نينوى ولاعن بانيها ولكنهُ اكتفى من تاريخها بقولهِ انها مبنية على عدوة دجلة. ويفهم من كلامهِ انهُ كتب تاريخًا لاشور وبابل لانهُ يقول ولبابل ملوك كثيرون اذكرهم في الكلام على اشور الاّ انهُ لم يقع الينا شيءٌ من ذلك ولاعثرنا على نقلٍ منهُ في كتب المؤرخين فلا يُدرَى هل كتب هذا التاريخ فعلاً ام كان ذلك في نفسهِ ثم لم يتأَتَّ لهُ اتمامهُ . لاجرم انهُ لو كان موجودًا في ايدينا لاتسع لنا النطاق في معرفة اخبار ملوكهم وعظائهم وفنونهم وعلومهم وعقائدهم وابنيتهم ومدنهم الى غير ذلك مما نتشوق الى معرفتهِ ونرتاح للوقوف عليهِ

واما الثاني فجميع كتاباتهِ لو معظمها منقولٌ عن مصنفات اكتزياس الكنيدي طبيب ملك فارس التي فُقدت في جملة مصنفات قديمة ثمينة . وكان مقام اكتزياس هذا في فرسبوليس في بلاط الملك المذكور آنفًا فجمع ما جمعهُ عن اشهر مؤرخي الفرس ولذلك يرجحهُ قومٌ على غيرهِ من المؤرخين

في معرفة حقيقة تاريخ اشور . ومن تاريخهِ ما رواهُ ديودورس نقلاً عنهُ ان اول ملوك اشور نينوس وكان جبارًا ابتنى مدينةً على عدوة دجلة سماها نينوى باسمهِ تخليدًا لذكرهِ ثم نهض للفتح فجهز جيشهُ وزحف بهِ على اقاليم كثيرة فاستفتحها وضرب عليها الخراج . وبعدهُ استبدَّت بالملك سميراميس زوجتهُ وكانت اول امراةٍ ملكت في العالم وهي التي شادت سور بابل وندبت لبنائهِ ما ينيف عن الفي الف رجل . اه

واما بيروسوس فهو كلدانيٌّ بابليُّ الاصل وكان كاهن بعلوس وقيل انهُ كان معاصرًا للاسكندر وهو من اشهر مؤرخي الكلدان دوَّن تاريخًا يتضمن اخبار ملوك بابل كافةً ولم يقع الينا من تاريخهِ سوى بعض روايات منثورة تداولتها ألسنة العامة وذكرها جماعة من المورخين في جملتهم يوسيفوس اليهودي واوسابيوس واكليمنضوس الاسكندري وشنسيلوس وغيرهم . وجميع ما اثبتهُ اخذهُ عن الواح قديمةٍ كانت في عهدتهِ في جملة متعلقات الهيكل قد سُطرت فيها اخبار الكون وملوك الارض قبل الطوفان وبعدهُ على ما ستراهُ في موضعهِ . وخلاصة ما قالهُ في هذا الصدد ان سكان بابل الاولين كانوا قبائل متوحشة لا نظام لعيشتها ولا معارف عندها حتى ظهر اوانس وهو الهٌ على شكل انسان وسمكة معًا خرج اليهم من بحر اريثرة فمدنهم وعلمهم الادب والفنون وبناء المدن والهياكل . واول ملكٍ ولي امرهم ألوروس وكان كرسيهُ في بابل وبقيت مدتهُ ٣٦٠٠٠ سنة ثم تعاقب على الملك بعدهُ تسعة ملوك من نسلهِ فساروا سيرتهُ في سن الشرائع والآداب الحدثة وآخرهم يسمى اكسيسوثروس وعلى عهدهِ انفجرت ينابيع المياه وغمرت الارض فابادت كل ذي نسمةٍ في الارض من البهائم والطيور والناس كافةً خلا الملك ومن معهُ ضمن الفلك الذي اوحى اليهِ كرونوس ان يبنيهُ . ولعل هذا هو عين الطوفان المذكور في كتب قدماء الهنود وقصتهُ اشبه بقصة الطوفان الذي ورد الخبر عنهُ في الكتاب المقدس حيث اهلك الماء كل حيٍّ في الارض ولم ينجُ الا نوح وعشيرتهُ في الفلك . وذكر بيروسوس انهُ قام عقب هذه الحادثة ستة وثمانون ملكًا من الكلدان ثم قدم ازدرخت الماديُّ بجيوشهِ الى بابل فاخذها واستباحها بالنهب سنة ٢٢٨٩ قبل الميلاد . وكثيرٌ من هذه الاقوال وما اشبهها وان وثق بصحتهِ بعض من تقدم من المؤرخين مدفوعٌ عند اهل التحقيق على ما اسلفنا ذكرهُ والمعتمد من ذلك كلهِ الى هذا الاوان ما سنذكرهُ في هذه الرسالة ان شاء الله تعالى وهو سبحانهُ اعلم

القسم الجغرافي

ذكر مملكة بابل ومدنها المشهورة

يحدُّ مملكة بابل شمالاً ما بين النهرين وجنوباً خليج فارس وغرباً شبه جزيرة العرب وشرقاً بلاد شوشانة ويمرُّ في ارضها نهرا الفُرات ودِجلَة متجهين من الشمال الى الجنوب. وهذه المملكة تنقسم في نفسها الى قسمين احدهما بلاد بابل على الخصوص وهي الواقعة ما بين النهرين المذكورين والآخر بلاد الكلدان وهي ما يليها من ملتقى النهرين الى خليج العجم . وكانت هذه المملكة في قديم الزمان معمورة بالمدائن الكبيرة والاسوار الحصينة والقصور الرفيعة والهياكل الشامخة والابنية المشهورة كما سنورد ذكرهُ حتى كانت تسمى بسيدة الممالك الّا انهُ لم يبقَ من جميع ذلك الّا بقايا رسوم يُستدَلُّ بها على مواقع بعض تلك المدن كمدينة بابل وأرَك وأكَّد وكَلْنة (وهي أُور الكلدانيين) وبورسيبا وايس او ايوبوليس وصفيرة وسلوقية واكتزيفون وغيرها

ذكر مدينة بابل * هذه المدينة كانت اعظم مدائن آسية وابعدها ذكرًا وارفعها عَلَمًا واوسعها ظلاً واكثرها ثروةً وعمرانًا وامنعها عزةً وسلطانًا صحبت الملوك دهرًا طويلاً وتقلبت في الخصب والدولة امدًا مديدًا حتى لم يكن لها ضريبٌ في جميع المدن التي تقدَّمتها في تاريخ العمران وبها سميت المملكة ببابل ولذلك يقدّمها الكتاب في الذكر على سائر مدن شنعار . وفي تسميتها ببابل اقوال اشهرها انها انما سُمِّيت بذلك اخذًا من بلبلة الالسنة فيها على ما ورد في سفر التكوين (ص ١١) من ان بني نوح لمّا ارتحلوا من المشرق ونزلوا بشنعار اخذوا في بناء برجٍ يبلغ الى السماء فبلبل الله تعالى السنتهم حتى صار بعضهم لا يفهم كلام بعضٍ فكفُّوا عن بناء البرج ولذلك دُعيت المدينة بابل اه. وهي كلمة عبرانية معناها على هذا البلبلة . وفي روايةٍ ان قومًا من الاقدمين بنوا هناك هيكلاً يجلسون ببابهِ لقضاء دعاويهم وفض خصوماتهم فسُمِّيت المدينة بابل واصلها على هذا باب ايل اي باب الاله. وقيل اصل اللفظة باب ايلو وهو الهٌ لقدماء الساميين وهو المسمّى اشور ايضًا الى غير ذلك من الاقاويل المبنية على ما تحتملهُ اللفظة من التفسير والتأويل

وقد اختلفت آراءُ قدماء المؤرخين في زمن تخطيطها فمنهم مَنْ ذهب الى ان بانيها بعلوس

وهو زُحَل عند اليونان وقال آخرون ان اوّل من وضع أُسُسها الملكة سميراميس زوجة نينوس وقال ديودورس الصقلي واميانوس مرشلينوس ان نينوس بنى هيكل بعلوس وسميراميس زوجته بنت اسوار بابل . وهنا بحثٌ هل سميراميس هذه هي نفس سميراميس التي يذكرها هيرودوطس في جملة ملوك بابل فان هذه كانت قبل الميلاد بما ينيف على الفي سنة والتي يذكرها هيرودوطس لم يكن بينها وبين الميلاد اكثر من ٨٢٠ سنة لانهُ جعل بينها وبين نيتوكريس خمسة قرون . والصحيح في ذلك كما قالهُ بعض الثقات ان لفظ سميراميس انما هو محرَّفٌ عن سمُّوراميت امرأة بعلوخوس الثالث على ما سبقت الاشارة اليهِ وكان مالكًا في اواسط القرن التاسع قبل الميلاد فتكون هي المشار اليها في كلام هيرودوطس ويكون ما ورد في رواية ديودورس واميانوس خطأً . وذهب قوم من قدماء المؤرخين وتابعهم بعض المتأخرين الى عكس ما ذُكِر وخطَّأوا مقالة هيرودوطس في كلامٍ قالوا فيهِ انهُ اراد ان يجعل بينها وبين نيتوكريس خمسة عشر قرنًا فذكر خمسةً الى آخر ما اوردوهُ وهو مرجوحٌ عند اكثر المحققين . وزعم البابليون والقول لكهنتهم الكلدان ان مدينة بابل بناها الهٌ من آلهتهم في زمنٍ لا يُعرَف بالتعيين . وذهب مؤرّخو الرومان واليونان مع الباحثين المعاصرين الى ان بناءها كان عقب الطوفان بزمنٍ يسيرٍ خلافًا لما ذكرهُ بيروسوس من ان عشرة من ملوك الكلدان تداولوا سلطنة بابل قبل الطوفان

ولم تكن بابل في اوّل عهدها عاصمةً للملك ولا من المدن الخطيرة كما تدلّ عليهِ الآثار التي كُشِفت في عصرنا هذا جنوبي المدينة فقد ثبت ان مدنًا اخرى كأَرَك وكلنة وغيرها من المدن المشهورة كانت قد بلغت المبالغ العظيمة من العزّة والغنى وبابل اذ ذاك قريةٌ دنيئة. ثم ضرب الدهر ضرباتهِ وافضت نوبة الملك اليها في سياقٍ غير معلوم فبلغت من العظمة والشهرة وسموّ المنزلة ما لم تبلغهُ احدى تلك المدن من قبل وجرى فيها من الاعمال العظيمة والانشاءات الجسيمة ما لم يجرِ في غيرها ولا يزول ذكرهُ على الابد وتحاشدت اليها الجبايات والارزاق وامتدت اليها اسباب التجارات من كل اوب واتسع فيها نطاق الثروة والغنى حتى لُقِّبت بمدينة الذهب

وكان من اشهر ما أُحدِث فيها من الاعمال المذكورة والعظائم المأثورة هيكل بعلوس والقصر الملكي وحدائقهُ المعلّقة . اما الهيكل فقد ذكرهُ جماعةٌ في جملتهم ديودوروس الصقلي وذكر ان بانيهُ بعلوس وروى غيرهُ انهُ بختنصرّ والصحيح ان بختنصرّ انما جدّد بناءهُ بعد خرابهِ على ما سنورد تحقيقهُ. وقد عاين هيرودوطس اليوناني مدينة بابل في اواخر القرن الخامس قبل الميلاد وكانت قد انحطّت عن عظمتها الاولى ووصف في جملة ما شاهدهُ هيكل بعلوس بما تلخيصهُ . ان في كل شطر من شطري المدينة ما يستحق الذكر ففي احدها بلاط الملك وهو فسيح محكم الاتقان وفي الآخر هيكل

بعلوس وهو باقٍ الى الآن على شكل مربع طوله اسناد تان في عرض مثلها وله باب من الشبه وفي وسطهِ برج حصين طوله اسنادة [1] في عرض مثلها ويعلوهُ برجٌ وفوق البرج برج وهكذا الى ثمانية ابراج بعضها فوق بعض يُرقَى الى كلٍّ منها بسلالم من الخارج وفي وسط الابراج مقاعد يستريح فيها الراقي اليها . وفي الاعلى منها معبد وسرير كبير وبجانبهِ مائدة ذهبية وفي الاخير مسجد لبعلوس يوبتير وفيهِ سرير كبير حسن الفرش وبجانبهِ مائدة ذهبية وليس فيهِ صور وتماثيل كما في غيرهِ . ولا يبيت فيهِ احدٌ ليلاً الّا ان تكون امرأةٌ وقع عليها اختيار الاله تبعًا لما يقول كهنة الكلدان وعندي ان ذلك كلامٌ لا صحة لهُ . وفي الهيكل مسجدٌ سفليٌّ وفيهِ تمثال كبير من الذهب يمثّل يوبتير قاعدًا وكرسيّهُ وموطئهُ قدميهِ وبجانبهِ مائدة وجميعها من الذهب الخالص تساوي على قول الكلدان ٨٠٠ زنة من الذهب [2] . وفي خارج هذا الهيكل مذبحان احدهما منَ الذهب ولا يضحّى عليهِ الّا بما كان صغيرًا من الحيوان والآخر كبير اعدّهُ الكلدان للذبائح الكبيرةِ المألوفة وكانوا يوقدون على المذبح كل سنة في عيد الاله ثلاثة آلاف اقة من البخور . وكان في المَقدِس اذ ذاك صنم كبير من الذهب الخالص ليوبتير بعلوس قاعدًا وارتفاعهُ اثنتا عشرة ذراعًا بصفة الكهنة ولم أَرَهُ . وكان داريوس بن هستاسب قد همَّ ان يأخذهُ عنوةً ثم لم يجترئْ على ذلك فاستحوذ عليهِ بعدهُ ابنهُ اكزرسيس وقتل الكاهن الذي مانعهُ من الاستيلاء عليهِ وحمل جميع ما فيهِ الى خزائن قصرهِ . هذا اخصُّ ما في الهيكل وفيهِ ايضًا اوانٍ يسيرة . اه . وذكرهُ استرابون المؤرّخ بقولهِ وقرب الحدائق المعلقة قبر بعلوس وهو خرابٌ تام خرَّبهُ اكزرسيس وكان على شكل هرم مربّع مبنيًا بالآجرّ علوهُ استادة واحدة في مثلها طولاً لكلٍّ من جهاتهِ . وكان في نيّة الاسكندر ان يعيد بناءَهُ لانهُ كان قد عزم على الاقامة ببابل وجعلها مباءَةً لهُ ولاعقابهِ بعدهُ فعاجلهُ الامر المحتوم قبل تقرير ما نوى . وذكرهُ ديودوروس في كلامٍ من جملتهِ قولهُ وشادت سميراميس عدا هذه الاعمال هيكلاً في وسط المدينة لا تحقّق عنهُ روايةٌ صحيحة لاختلاف اقوال الكتّاب فيهِ الّا انهم اجمعوا على انهُ بناءٌ شامخ الارتفاع في اعلاهُ مرصدٌ للكلدان كانوا يرصدون منهُ حركات الكواكب فيعرفون اوقات طلوعها وغروبها . وهو مبنيٌّ بالآجرّ والحُمَر وعلى اعلاهُ تماثيل يوبتير ويونون وريا وهي مغشّاة بالذهب وامامها مائدة مغشّاة بالذهب ايضًا وكان عليها اوانٍ وتُحَف كثيرة انتهبها ملوك الفرس اه . ومن الناس من يظنُّ ان هذا البناء الذي يصفهُ هو برج بابل المعروف الآن ببرج نمرود وآثارهُ لا تزال بين أخربة بورسيبا على ما سنذكرهُ بعدُ . وقد اثبتوا بعد الفحص المدقّق ان ارتفاعهُ كان ينيف على اعلى رؤوس الاهرام المصرية بمئة قدم واذا كان ذلك صحيحًا فلا عجب اذا احصاهُ المتقدمون في جملة الغرائب

---

(١) قالوا ان الاسنادة تكون ١٨٥ مترًا

(٢) الزنة في اشهر الاقوال تعادل ٧٠٢٠٠ فرنك فيكون المجموع ٥٦١٦٠٠٠٠ فرنك

اما القصر الملكي فمنشئهُ بختنصر وقد ورد ذكرهُ في كثيرٍ من مصنّفات القدماء ولاسيما اليونان فانهُ ما برح عندهم محلاً للعجب والاندهاش بالنظر الى ما كان عليهِ من السعة والعظمة وغرابة الاتقان وما يليهِ من الحدائق المعلّقة التي عُدّت في جملة عجائب الدنيا السبع . ومنشؤها فيما روى ديودوروس ملكٌ من أعقاب سميراميس سألتهُ ذلك حظيةٌ لهُ من بلاد فارس احبّت ان يمثّل لها ما في بلادها من الروابي المكسوّة بخضرة الرياض والبساتين فامر بانشائها على ذلك المثال . ولذلك جعلها على هيئة سطوح قائمة بعضها فوق بعض وكل واحدٍ من هذه السطوح يتأخّر عن الذي تحتهُ على شكل ما يُسمّى بالانفتياتر حتى كانت والاشجار عليها اشبه برابيةٍ خضراء ذات مروجٍ وخمائل رائعة . وكانت هذه الحدائق مربعة الشكل طول كل جهة من جهاتها ٤ فلترات اي نحو ١٢٠ مترًا وكل سطحٍ من السطوح المذكورة يُرقى اليهِ بسلَّم بينهُ وبين الذي يليهِ والسطوح برمتها قائمة على عَمَدٍ وهي مفروشة بصفائح من الرخام طول الواحدة منها ١٦ قدمًا وعرضها ٤ اقدام . وهذه الرخام مستورة بخيزران قد غُمِسَ في الحُمَر وفوقهُ صفّان من الآجرّ المغموس في الجصّ وفوق ذلك صفائح من الرصاص تمنع نفوذ الماء الى ما تحتها من البناء اذا سُقي ما فوقها من الاشجار. وفوق الرصاص التراب المغروسة فيهِ اشجار الحدائق وهو من الكثرة بحيث يمكن ان تُغرَس فيهِ اعظم سرحةٍ . وكان هذا الموضع كلهُ مغطًّى بالشجر المختلف والمغروسات الانيقة ذات النشر والثمر . وفي داخل العَمَد المذكورة غُرَف رائعة الاتقان محكمة الوضع ينفذ اليها النور من خلال العمد وهي الغُرَف الملكية . وكان احد العَمَد أجوف من راسهِ الى عقبهِ وفي داخلهِ آلات ترفع الماء من النهر فتصبهُ في الحدائق اه . هذه صفة هذه الحدائق في الجملة وقد درستها الايام فيما درستهُ من تلك العظائم العجيبة فاصبحت تلاً من الحجارة والانقاض

وذكر ديودوروس في جملة ابنية بابل قصرين او قلعتين بنتهما سميراميس على كلٍ من طرفي الجسر الذي ابتنتهُ على النهر فقال بعد ذكر بنائها للمدينة والسور انها بنت الجسر على اضيق موضع من النهر في طول خمس استادات وقد رفعتهُ على قواعد راسخة في جوف الارض بين الواحدة منها والاخرى اثنتا عشرة قدمًا وشدّت حجارتها باربطة من حديد وعقدت بينها بالرصاص المذاب وزلّت نواحيها المعرّضة لجرى الماء بحيث لاتتمكن منها قوة الماء في اندفاعهِ وسقّفت الجسر بخشب السرو والارز على جوائز من جذوع النخل وكان عرض الجسر ٣٠ قدمًا وهو يُعدّ في جملة ابنية سميراميس العظيمة . قال ثم بنت على كلٍّ من طرفي الجسر قصرًا يشرف على سائر المدينة احدهما ينظر الى شطرها الشرقي والآخر الى شطرها الغربي لان المدينة كانت منقسمة كذلك اذ كان النهر يخترقها من الشمال الى الجنوب فكان هذان القصران بمنزلة مفتاحين لشطريها المذكورين وكانا

على اتم صنعةٍ من الاحكام والزخرفة . والقصر الغربي منهما محيطهُ ٦٠ استادة وذلك نحو ١١ كيلومترًا وحولهُ سور شامخ من الآجرّ ويليهِ من الداخل سور آخر من اللِبن وعليهِ صُوَر من الحيوان بديعة الصنعة رائعة الاتقان يتخيل الناظر اليها انها حيَّة . وطول هذا السور ٤٠ استادة وثخنهُ يعادل ٣٠٠ آجُرَّة وارتفاعهُ على ما ذكر اكتزياس ٥٠ أُرجيَّة وهي نحو ٩٠ مترًا . ثم وُجِد امام هذا السور سور ثالث اعلى منهُ وهو يلي القصر من حولهِ ومحيطهُ ٢٠ استادة . وكان على الاسوار والابراج التي عليها صُوَر من الحيوان في غاية الاتقان وصورة مشهد صيدٍ فيهِ كثير من انواع الحيوان . وهناك صورة سميراميس على فرسٍ وفي يدها حربة قد طعنت بها نمرًا وبقربها منها صورة نينوس زوجها وفي يدهِ رمحٌ يطعن بهِ اسدًا . وكان للقصر باب ذو ثلاثة مداخل ووراءهُ غُرَف من الشَبَه . واما القصر الثاني فكان دون هذا في الرونق والسعة ولم يكن لهُ الاَّ سور واحد من الآجرّ محيطهُ ثلاثون استادة وهي نحو ٥٥٢٠ مترًا . وكانت فيهِ تماثيل لنينوس وسميراميس وجماعةٍ من رجال الدولة والعُمَّال وكلها من الشبه وتمثال يوبتير وهو الذي يسميهِ البابليون بعلوس . وفيهِ فضلاً عن ذلك صُوَر معارك ومصارعاتٍ ومشاهد صيدٍ متقنة الوضع محكمة الصنع . وبين القصرين نَفَقٌ ينفذ اليهما من طرفيهِ احتفرتهُ تحت النهر ارتفاعهُ ١٢ قدمًا وسعتهُ عرضًا ١٥ قدمًا وسقفهُ معقود بالآجُرّ في ثخن اربع اذرع مطليًّا بالحُمَر المذاب وثخن الجدار ٢٠ آجرَّة واتمتهُ في سبعة ايام . انتهى كلام ديودوروس ببعض تصرُّف الاَّ ان اكثر اهل التحقيق على ان باني القصرين هو بختنصر كما تدلُّ على ذلك كتابةٌ لهُ على بعض الآثار لا سميراميس التي نسب اليها ديودوروس جميع ما سوى الحدائق المعلَّقة من عظائم بابل . واخربة القصر الشرقيّ من القصرين المذكورين باقية الى الآن وفيهِ كانت وفاة الاسكندر

وبقرب اخربة القصر الملكي آثار مسافتها مئة متر يظنُّ الباحثون انها الحَمَّامات التي ذكرها اريانوس . ويليها على مقربةٍ منها أخربة يقال لها تلّ عمران وهيئتها اشبه بربوةٍ مضلَّعة تضليعًا افقيًا طولها من الغرب الى الشرق ست مئة وخمسون قدمًا الاَّ انها ادنى ارتفاعًا من سائر الروابي التي تجاورها وعليها بقايا ابنية من الآجرّ . وقد احتفر فيها بعض السيَّاح فوجدوا قبورًا مكدونية في بعضها اكاليل ذهبية حملوها الى قصور التحف في اوروبا . ومن الناس من يظن ان هذه الأخربة هي بقايا الحدائق المعلقة التي مرَّ ذكرها الاَّ ان ذلك ضعيف . اما اولاً فلانهُ لم يُرَ اسمٌ لبختنصَّر على بقاياها كما هو دابهُ في كل ما بناهُ ان ينقش عليهِ اسمهُ فلو كانت هذه من ابنيتهِ لم يتركها غُفلاً مع ما هي عليهِ من العظمة والغرابة حتى كانت تُعدّ من جملة عجائب الدنيا . واما ثانيًا فلان مساحة الحدائق المذكورة كانت ٤٠٠ يرد لكل جهةٍ من جهاتها والأخربة المذكورة طولها ١١٠٠ يرد فبين المساحتين تفاوت بعيد والله اعلم . وفي جملة ما كشفهُ الباحثون في بابل اثر سور في جانب النهر

قالوا انهُ السور الذي بناهُ نبونيدوس ملك بابل وقد ذكرهُ بيروسوس فقال انهُ يمتدُّ من طرف السور الشمالي الذي دخل منهُ قورش مدينة بابل الى منفذ الفرات في الجنوب وعليهِ فتكون مساحة السور مساحة مدينة بابل كلها. والمظنون ان بناءَهُ كان لصيانة الجانب الادنى من المدينة حين طغيان الماء . ووجدوا ايضًا آثارًا يقولون انها من بقايا الجسر الذي ذكرهُ هيرودوطس وديودوروس الصقلي وقال قومٌ انها من آثار الاسوار التي كانت لكلٍ من القصرين على جانبي النهر

وكانت بابل هذه مربعة الشكل طول كل جهة من جهاتها اثنان وعشرون كيلومترًا . وذكروا ان اوّل من بنى عليها سورًا بلأَدان الأَّ ان هذا الاسم يُطلَق على غير واحدٍ من ملوك بابل يتعذَّر معرفة زمان كلٍّ منهم وتعيين المراد منهم هنا . وفيما قرَّرهُ بعضهم ان المراد بهِ مرودخ بلأَدان الذي كان في خلال القرن الثامن قبل الميلاد ويَرِد عليهِ ان معظم اهل التحقيق على ان نبوبت بيل وهو السور الاوسط بنتهُ سميراميس وكان عهدها في اواسط القرن التاسع وعليهِ فيكون السور الاوسط قد بُني قبل الاصغر وهو مخالفٌ لمقتضى النظر اذ السور انما يُبنَى للاحاطة بالبلد فاذا كان البلد محاطًا بسور فلا معنى لبناءِ سورٍ آخر في داخلهِ . ولعلهُ بنْ بلأَدان الذي كان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقد تحقق من الآثار انهُ سوَّر بعض مدن بابل والله اعلم . وكان السور المذكور يُسمَّى نيوبيت مرودخ اي مسكن مرودخ وهو الاهٌ لهم مشهور ولعلَّ هذا اصل ما ذهب اليهِ بعضهم من نسبة بنائهِ الى مرودخ بلأَدان للملابسة بينهما في التسمية واثر هذا السور فيما يقال باقٍ الى الآن وهو لا يحيط الاَّ بقسم صغير من اخربة بابل. ثم انَّا اذا تتبعنا كتابات الملوك يجتمع لنا عدة اسوار لبابل وذلك ان بعضًا منهم كانوا يكتبون اسماءهم على ابنية هذه المدينة ويباهون بانهم قد شيدوا لها اسوارًا وشحنوها بالقلاع الكبيرة كبختنصر حيث يقول على بعض تلك الآثار اني بنيتُ اميغور بيل ونيوبيت بيل سورَي بابل العظيمين مع ان نيوبيت بيل كان قبل بختنصر بزمن بعيد . ولعلَّ الواقع ان احدهم كان اذا رمَّ في احد الاسوار موضعًا متهدمًا او بنى شيئًا من ابراجهِ سواءٌ كان هو واضعهُ ام اصلح فيهِ شيئًا يدَّعي انهُ هو بانيهِ استئثارًا بالفخر والذكر الدائم. ونيوبيت بيل المذكور هو السور الاوسط الذي يلي نيوبيت مرودخ وبانيهِ في قول المحققين سميراميس على ما مرَّ ذكرهُ ولا يبعد ان تكون هي اسستهُ وقد تكون رممتهُ فقط ثم ائمةُ الملوك من بعدها . وبيل اسم الهٍ آخر لهم ومعنى التسمية مسكن بيل. وارتفاع هذا السور باجماع المؤرخين كان نحو خمسين ذراعًا وثخنهُ ثماني عشرة ذراعًا ومحيطهُ ٨٤٠٠٠ ذراع وارتفاع ابراجهِ مئة وعشر اذرع ومساحة البقعة التي يحيط بها ٢٨٤٢٠٠ ذراع مربَّعة . ثم لما اتسع نطاق بابل وكثر سكانها لم يبقَ موضع لاقامة ابنية جديدة في داخل السور فاخذ الناس يبنون في ربَض المدينة حتى كثرت الابنية والتفت من حول السور فاخذ بختنصَّر في بناءِ سور جديد وراءَ الاوّل وسماهُ اميغور

بيل ومعناهُ بعل يصون. وكان هذا السور ارفع كثيرًا من السور الاوسط الذي هو نيويت بيل ولكن لا يتاتى لنا تحقيق قياسهِ لاختلاف اقوال المؤرخين فيهِ. والذي يتخلص من مجموع كلامهم ان ارتفاعهُ كان نحو تسعين ذراعًا وثخنهُ نحو ٨٥ ذراعًا وان ابراجهُ كانت اعلى منهُ بئة قدم . وكان مكتنفًا بخندق من جهتيهِ ولذلك لما سقط تكوَّرت انقاضهُ في ذلك الخندق وتبدَّد ما بقي منها على تمادي الزمان فضلّ رسمهُ وعفا اثرهُ ولم يبقَ دليل على موقعهِ الاصلي. وقد اورد هيرودوطس ذكرهُ فقال ان السور الكبير يحيط بالمدينة على شكل مربع في طول ١٢٠ اسنادة لكل جهة من جهاتهِ ويُسمَّى اميغور بيل ومساحة الارض التي يحيط بها ٥١٣ كيلومترًا مربعًا اه. وكان لاميغوربيل مئة باب من الشَّبَه وهو ضربٌ من النحاس الاصفر لكل جهة من جهاتهِ خمسة وعشرون بابًا تُغلَق اذا خِيفَ مهاجمة عدو للمدينة . وكان هذه المدينة على ما رواهُ قوم من قدماء المؤرخين اسواقٌ مستقيمة تمتدُّ من كلٍّ من هذه الابواب الى ما يقابلهُ في الجهة الاخرى وبذلك انقسمت المدينة الى ٦٢٥ مربعًا او حِواء في كلٍّ منها حدائق ومروج فسيحة فيها من جميع انواع الاشجار المثمرة واصناف البقول والرياحين حتى قال ارسطاطاليس ان صح ان تُدعَى بابل مدينةً واحدةً فالبيلوبونيسة باسرها تُحسَب بلدًا واحدًا اه . وقد اختلفت الاقاويل في محيط السور على انحاء شتى ولعلَّ ما قالهُ فيهِ هيرودوطس هو الاصح لما اثبتهُ كثيرون من ان القياس الذي ذكرهُ لهُ هيرودوطس وهو اربع مئة وثمانون اسنادة موافق تمامًا لما ذكرهُ بختنصَّر حيث قال اني قستُ اميغوربيل سور بابل العظيم الذي لم يسبقني الى بنائهِ ملكٌ قبلي فكان اربعة آلاف مهرغاغار وهي مساحة بابل اه . وكان اوَّل افتتاح بابل على يد قورش وهو الذي اخذ ابواب السور وجاء بعدهُ داريوس فخرَّب جانبًا منهُ ويُظَنُّ ان خراب هذا السور تمَّ في عهد اكزرسيس وارتكزرسيس ولم يبقَ في عهد الاسكندر الاَّ السور الثاني المسمَّى نيويت بيل. ولعلَّ هذا سبب الخلاف الذي بين هيرودوطس ومن تاخَّر عنهُ من المؤرخين لان هيرودوطس لما قدم بابل كان اميغوربيل قائمًا فما ذكرهُ من قياس السور انما كان لاميغوربيل والذين جاءوا بعدهُ لم يروا الاَّ نيويت بيل وهو اصغر منهُ فهم انما قاسوا غير السور الذي قاسهُ هيرودوطس

هذا معظم ما اتصل الينا وصفهُ من ابنية هذه المدينة وغرائبها وهي قديمة عهدٍ بالخراب فقد ذكر ديودورس انها كانت في ايامهِ قد ناهزت الدروس . قال وفي بابل عدة ابنية عظيمة من ابنية الملوك وغيرهم يتعذَّر عليَّ وصف ما كانت عليهِ في إبَّان امرها لانهُ لم يبقَ منها الاَّ بقايا شاخصة ورسومٌ ناقصة . اه

اما موقع بابل فقد اجمعت العلماء وارباب البحث على انهُ المكان الذي فيهِ تلك الاخربة العظيمة الممتدَّة الى مدًى شاسع قرب مدينة الحلَّة على مسافة خمسة اميال منها على ضفة الفرات كما

مرَّ ذكرهُ ومن هذه الاخربة يُستدَلُّ على ما كانت عليهِ سالفًا من العظمة والاحكام . ومع اتفاقهم على ان هذه البقايا هي بقايا مدينة بابل المشهورة فانما هو حكم استدلال وغلبة ظن لا يقين قاطع اذ لم يجدوا هناك ما يقضي بالجزم ولم يجدوا مع ذلك ما يناقض هذا الاستدلال فصار قسمًا بمنزلة اليقين. ثم ان معظم هذه الاخربة واقع على ضفة الفرات الشرقية وليس على الضفة الغربية الاَّ جانب صغير. ومن الناس من يقول ان ملوك بابل في إبَّان امرها كانوا قد حوَّلوا النهر الى وسط المدينة وزيَّنوا جانبيهِ بالرُصُف المتقنة فكان يقسم المدينة الى شطرين متآزيين كما اسلفنا ذكرهُ . فلما انقضى امر اولئك الملوك وسقطت دولتهم اخذت المدينة في الانحطاط واخطأتها عناية المرممين ومال النهر مع كرور الايام الى مجراهُ الاصلي شيئًا بعد شيء مستعرضًا الى جهة الغرب حتى عاد الى موضعهِ القديم . ويؤيد هذا القول انا نرى بقايا الشطر الشرقي من المدينة أبيَن آثارًا وأعرَف رسمًا حتى ان بقايا الرصيف الذي على ميسرة الفرات لم تزل الى يومنا هذا وعليها اسم آخر ملوك بابل بخلاف الشطر الغربي فان ماء النهر قد جرَف تلك الابنية وترك موضعها قاعًا بورًا . ومما يزيد هذه المدينة غرابةً انها مع عظم ابنيتها وكثرتها واتساعها كانت تلك الابنية من طين كانوا يخلطونهُ بالحُمَر ويصنعون منهُ قطع الآجرّ واللبن طبخًا بالنار او تجفيفًا في الشمس ويبنونها موضع الحجارة لان الصخر قلما يوجد هناك وبذلك قامت تلك الهياكل العظيمة والاسوار الشاهقة والمعاقل الحصينة التي صبرت على مهاجمات الزمان وسطوات الاقدار قرونًا متوالية وبعد خرابها بقيت زمنًا طويلاً بمنزلة مقلع تُنقَل منهُ مواد البناء الى ما يجاورها من البلاد حتى ان سلوقية واكتزيفون وبغداد والكوفة والحلّة وغيرها من المدن بُنِيَتْ من بقايا بابل فضلاً عمّا بقي فيها من جبال الانقاض المنتشرة في تلك النواحي وخلالها بقايا رسوم لا يأويها الاَّ البوم والغراب. وقد تحققت فيها نبوة رجال الله ولا سيما اشعيا القائل ويكون من امر بابل التي هي بهاء الملك وزينة فخر الكلدانيين كما كان من تقليب الله لسدوم وعمورة فلا تُعمَر ابدًا ولا يأوي اليها ساكنٌ من بعدُ ولا يخيّم هناك اعرابي ولا يُربض راعٍ سرحهُ لكن يربض هناك وحش الصحراء ويملأ بيوتهم البوم وتسكن هناك رئال النعام وتطفر معز الوحش وتصيح بنات آوى في قصورهم والذئاب في هياكل ترفهم (١٣: ١٩ الى آخره). ومدينة الحلّة مبنيّة على آثار اخربة بابل قيل أُحدِثَت سنة ١٠٩٢ ميلادية وبانيها صدقة بن منصور. ويستفاد من بعض الكتب انها كانت في اول امرها مقام قبيلة من العرب وهي اليوم قرية دنيئة وغالب سكانها قوم صعاليك وهناك محط للمسافرين من خليج فارس الى بغداد . وفي شمالها الشرقي آثار عديدة يُظَنُّ انها من آثار مدينة القوطيين الذين كانوا يعبدون زحل او المريخ . وفي الجهة الجنوبية منها قاعدة صنم كبير يقال انها قاعدة الصنم الذي نصبهُ بختنصر وهو المذكور في سفر دانيال

ذكر مدينة بورسيبا * وكان بين اميغور بيل ونيويت بيل موقع مدينة بورسيبا المشهورة . وبورسيبا كلمة اشورية مركبة معناها برج اللغات . ويُستدلُّ من الآثار والتقليد البابلي القديم انهُ فيها كانت بلبلة الالسنة كما تشير اليهِ تسميتها . وتُعرَف اخربتها اليوم ببرج نمرود وهي تبعد اربعة كيلومترات عن نهر الفرات وهناك آثار البرج وهي عظيمة شاخصة في السماء على شكل هرمٍ وارتفاعها احدى وستون ذراعًا ومحيطها تسع مئة وثلاثون ذراعًا ومعظمها كأنهُ تلٌّ من الانقاض في غربيهِ قطعة من حائط عظيم قد تعاصت على كرور الحوادث يبلغ ارتفاعها سبع عشرة ذراعًا وطولها اثنتا عشرة ذراعًا وثخن الحائط اثنتا عشرة ذراعًا ايضًا. ويتصل اعلى هذا الحائط بسطح طولهُ مئة واربع اذرعٍ ويُظَنُّ ان هذا الحائط من بقايا الهرم الاصلي وارتفاعهُ نحو سبع عشرة ذراعًا . وكان هذا البرج يُسمَّى بهيكل عوالم الكون السبعة يعنون بها السيَّارات السبع التي كانوا يعرفونها وقتئذٍ كما سنورد تفصيلهُ . وزعم قدماءُ الكلدانيين ان بانيهُ ملك من ملوكهم وذلك عقب الطوفان بزمنٍ يسير ثم جدَّد بناءَهُ بختنصَّر على رسمهِ القديم كما يتضح ذلك من كتابةٍ لهُ وُجِدَت من عهدٍ قريب . وذلك ان رولنسون الانكليزي وجد في اخربة هذا البرج سنة ١٨٥٤ ناجودين من الخزف البابلي فحملها الى دار الآثار في لندرة وكانت على احداها كتابة يقول فيها . انا بختنصَّر ملك بابل قد جدَّدت بناءَ الهرم والبرج ذي الطباق . انا ابن نبو بولاصر ملك بابل ولد في مرودَخ الاله العظيم وامرني بتشييد معابدهِ . ان الهرم هو اعظم هيكل في السماء وعلى الارض وهو مقام مرودخ رب الآلهة . وانا جدَّدت مقدسهُ مكان قرار جلالهِ بالذهب الابريز وجدَّدت برجهُ ذا الطباق الذي هو مقرُّ الخلد وشيَّدتهُ بالذهب والفضة ومعادن اخرى وبالآجرّ المرصع بالميناءِ وخشب السرو والارز واتممت زينتهُ . والبنية الاولى التي هي هيكل قواعد الارض القائم بها تذكار بابل قد اتممتها واقمت اعلاها بالآجرّ والشبه واما البنية الثانية التي هي هيكل سبعة انوار المسكونة القائم بها تذكار بورسيبا فكان قد شرع في بنائها اوَّل الملوك ولم يتمها الى اعلاها وبيني وبينهُ اثنان واربعون زمنًا . ثم أُهملت دهرًا مديدًا واعيا الملوك الذين سلفوني مقصدهم من تشييدها فاخذتها السيول والعواصف وزعزع زلزال الارض اللِبن وحطَّم الآجرّ المطبوخ واتلف لبن الطباق فكان روابي مركومة . فشدَّد مرودخ الاله الكبير عزمي لاعادة بنائها فأعدتها من غير تغيير في موقعها ولا تعطيل في أُسسها . وفي شهر الختام في النهار السعيد حوَّطت الطباق من اللبن والآجرّ المطبوخ بأروقة وجدَّدت السلَّم المستديرة ونقشت اسمي المجيد في افريز الاروقة وقد اسست البناءَ وجدَّدتهُ على وفق ما رسمهُ من تقدَّمني حتى عاد كانهُ قد بُني في سالف الازمنة اه . وهذا البرج من اهول ما بناهُ البابليون واجلّهِ خطرًا واعظمهِ شانًا وكان بمنزلة هيكل سباعي للآلهة السبعة التي يلقبونها بسبعة انوار المسكونة وكانت

لهُ سبع طباق كل طبقة منها خُصِّصت بواحد من تلك الآلهة . فاوّل طبقة منهُ وهي السفلى كانت لزُحَل ولونها اسود. والثانية للزُهَرة ولونها ابيض. والثالثة للشتري ولونها برد قاني. والرابعة لعطارد ولونها ازرق. والخامسة للمرّيخ ولونها قرمزي. والسادسة للقمر ولونها فضّي. والسابعة للشمس ولونها ذهبي . وقد ذكرنا ان من الناس من استدلّ على ان بلبلة الالسنة كانت في هذه المدينة وهم يقولون ان البرج المشار اليهِ هو البرج المذكور في الفصل الحادي عشر من سفر التكوين وعلى ذلك تُحوَّل الحادثة المذكورة هناك من مدينة بابل الى بورسيبا . وقد كثرت اقوالهم في هذا البرج وواضعهِ وعلة بنآئهِ على انحاء شتى . فذكر يوسيفوس ان واضعهُ نمرود بناهُ بعد الطوفان لينجو الناس اليهِ اذا حدث طوفان آخر . وذهب غريفل الى ان اوّل من بناهُ ملك من اقدم ملوك تلك البلاد اراد ان يكون ذكرًا مخلدًا للبلبلة اي بلبلة اللغات وذكر ان ارتفاعهُ اثنتان واربعون ذراعًا (او مقياسًا آخر لا يُعلَم ما هو) . وذهب غيرهُ الى انهُ هو هيكل بعلوس الذي ذكرهُ هيرودوطس وقال انهُ ذو ثمانية ابراج او طباق بعضها فوق بعض وقد تقدم ذكرهُ . وقال قومٌ انهُ كان بنآء عظيمًا ذاهبًا في العنان استلزم لاقامتهِ عددًا غفيرًا من العملة وكان المشتغلون فيهِ في اول الامر جميعهم بابليين يتكلمون بلسان واحدٍ فالجأتهم الحال لتعجيل العمل ان يستعينوا بعملة آخرين من غيرهم فحشدوا لذلك بنّائين ونحاتين من امم مختلفة يتكلمون بالسنةٍ شتى . فلما كانوا في بعض الايام هبت عواصف شديدة فنسفت راس البرج فخُيِّل لهم ان الآلهة فعلت ذلك وبلبلت السنتهم فكفوا عن بنآئهِ وشاع هذا الاعتقاد بين الكلدانيين من ذلك الوقت

ويظهر ان بورسيبا في اوائل الاجيال النصرانية كانت معمورةً بالابنية والهياكل وقد ذكرها استرابون على حالها الاخيرة فقال ان بورسيبا المعروفة الآن باسم بروس هي من المدن المشهورة بنسج الكتان وفي جملة ابنيتها هيكلان فاخران احدهما لابولون والآخر لارطاميس اختهِ . قال ويكثر في نواحيها الخُفّاش وهو اكبر من الخفّاش المعروف عندنا وهم يأكلونهُ وبعضهم يدّخرهُ مقدّدًا مملوحًا الى حين الحاجة انتهى . وعلى مسافة يسيرة من اخربة بورسيبا آثار قديمة العهد جدًّا وتعرف بابرهيم الخليل وفيها على ما قال كثيرون هياكل آو ونيبو سمدان ونانا التي ذكر بختنصّر انها من بنائهِ . وهناك قبة في الموضع الذي يقال انهُ فيهِ طرح نمرودُ ابرهيمَ الخليل في أتّون النار وبقربها تلّة يبلغ ارتفاعها اكثر من ثلاث وثلاثين ذراعًا وطولها نحو ٤٦٠ قدمًا وهي على ما قيل نفس الهرم الذي ذكرهُ استرابون وقال انهُ قبر بعلوس وهو غير ثبت . وفي تلك النواحي اخربة كثيرة حفر فيها بعض السائحين فوجدوا تحفًا كثيرة من اوانٍ وآجرّ وغيرها وقالوا ان محيط الآثار فيها يبلغ ميلاً

ذكر سلوقية واكتزيفون * ومن مدن بابل التي اشتهرت في عصر الملوك البرثيين سلوقية

واكتزيفون اللتان مرّ ذكرها بنى الاولى سلوقوس وهو احد اعقاب الاسكندر الرومي فسُمّيت باسمهِ اراد بها مساماة بابل وحطّ ما كانت عليهِ الى ذلك الحين من العزّ والفخامة وجعلها مباءَةً لهُ فشيَّد بها المباني الحافلة والمصانع العظيمة والهياكل المرتفعة وهو الذي بنى سورها فيما يظن فصارت تُعدُّ من المدن الكبيرة بآسية. وكان موقعها على ميمنة دِجلة وبقربها على بعد ٤٠٠٠ او ٣٥٠٠ متر عن ضفة النهر المذكور الى الغرب مصب نهر دلاس وهو يصبُّ في دِجلة وبين دلاس ونهر عيسى المعروف بالترعة السفلاوية ١٥٠٠ متر . وكانت سلوقية تجاه مدينة اكتزيفون ولم يكن بينهما الاّ مياه دجلة. قال بلينوس وكثيرًا ما يُطلَق على سلوقية اسم بابل وهي الآن مستقلة والشائع ان سكانها ينيفون عن ست مئة الف نسمةٍ وهيئة حدودها على شكل نسر ناشر جناحيهِ اه . وقد افتتح هذه المدينة فيروس الروماني ودكّ سورها واخربها جملةً . قال المؤرّخ اميانوس مرشلينوس عند ذكر هذه الحادثة لما استحوذ قوّاد قيصر على سلوقية حملوا جميع كنوزها وغنائمها الى رومية وكان في جملة ما نقلوهُ صنم لابولون اقامهُ الكهنة وجعلوهُ في هيكل لهُ في جبل بلاتين . قال وبعد هذه الحادثة بايام رأى بعض الجنود منفذًا صغيرًا بين الاخربة فظنُّوا ان هناك مغارةً تخيَّلوا ان فيها كنوزًا ثمينة فلما حفروا انبعثت من الارض رائحة كريهة نشأَ عنها وبآءٌ ذريع ففشا بين الناس ومات بهِ خلق كثير وما زال فاشيًا حتى انقضى عهد فيروس وقام بعدهُ مرقس انطونينوس والوبآء ممتدٌّ من حدود مملكة فارس الى نفس غاليا اه

واما اكتزيفون فموقعها على ضفة دِجلة الغربية وهي من بنآء الملوك البرثيين واوّل من شرع في بنآئها وردانوس وقام بعدهُ باكوروس فاقام لها سورًا حصينًا وشاد في داخلها ابنية عديدة وكان من اكبر علل نجاحها سقوط مدينة بابل ثم عقبهُ انحطاط سلوقية عن عظمتها فزاد ذلك في عمارتها وارتفاع شانها . وكانت مباءَةً للملوك البرثيين فكان لها بذلك الحظُّ الاكبر وتواردت اليها الثروة والجاه وكثرت فيها المعاقل والحصون واسباب القوة والمنَعة وتعدَّدت فيها الهياكل والابنية العظيمة اذ كان كل واحدٍ من اولئك الملوك يزيدها من تلك الابنية ما يفوق بهِ من سلفهُ حتى صارت بعد حينٍ من اعظم مدن فارس. وما زالت في تلك العظمة والرفعة الى ان زحف عليها تريانوس القيصر الروماني فضربها واستفتحها عنوةً واستباحها بالقتل والنهب وكل من تخلَّف عن طاعتهِ من اهلها اخذهُ اسيرًا وذلك سنة ١١٥ ميلادية. ثم اقتدى بهِ فيروس فنهض الى سلوقية واخذها على ما اسلفنا ذكرهُ وزحف منها الى اكتزيفون فمحا ما بقي من آثارها وردَّها قاعًا صفصفًا . وبقاياها اليوم تبعد ست ساعات عن مدينة بغداد على مسافة ميل عن ميسرة دِجلة . ويقال انهُ استؤنِف بنآء سورها في اوائل عهد النصرانية بدليل ان كثيرين من قياصرة الرومان من كراسوس الى يوليانوس قصدوها

فعجزوا عن اخذها وكاد بعضهم يتفانى تحت اسوارها . وعليهِ فالظاهر ان الاخربة الباقية منها الآن هي من بقايا تجديدها ومحيطها ميلان. وقد بقي جانب من سورها ظاهرًا من بين الانقاض وهو مبني بالآجرّ الذي نُقِل من اخربة بابل وثخنهُ يعادل ثخن الاسوار الكبيرة ويكون ذلك الى ٢٠٠ آجرّة.

وفي اواسط الاخربة اثر قصر عظيم يقال لهُ سربر ايوان كسرى او سربر كسرى ويراد بهِ باب القصر وهو من بقايا قصر بناهُ احد الملوك البرثيين. ومن الناس من يظن انهُ هيكل لمعبود الشمس او النور استدلالاً باثرٍ كشفوهُ هناك وقال آخرون انهُ بنية اقامها ملك من الملوك الاوربيين كان افتتح هناك فتوحاتٍ فبنى هذا القصر ذكرًا لهُ . ومهما يكن من ذلك فانهُ بناءٌ عظيم واسع قديم العهد من اكثر من الفي سنة وهو مبني بالآجرّ واللبن وقد اصبحت جميع جدرانهِ ما خلا الشرقي منها خرابًا تامًّا. وطول هذا الجدار مئتان وسبعون قدمًا وارتفاعهُ ستٌّ وثمانون قدمًا وفي وسطهِ قنطرة بابها عقدٌ غورهُ مئة واربع وثمانون قدمًا وارتفاع القنطرة خمس وثمانون قدمًا وعرضها ست وسبعون قدمًا وثخن جدارها ثلاث وعشرون قدمًا . ولهذا الجدار ستة ابواب متنوعة الاشكال في كل شطر من شطريهِ على جانبي القنطرة ثلاثة ابوابٍ وفيهِ اربعة صفوف من الكُوَى غور الواحدة منها قدم في مثلها طولاً وعرضًا يظن الناظر اليها انها وكنات طيور وينبعث الضياء الى داخل القصر من غير هذا الجدار . وعلى مقربة من القصر جامع كبير يزورهُ مسلمو تلك النواحي وهناك بعض اخربة على شكل تلالٍ لم يتيسر للباحثين الوقوف على حقيقتها . وتُعرَف اراضي اكتريفون وسلوقية وما في جوارها بالمدينتين او المدائن

ذكر أُور* واقدم مدن الكلدان أُور او أُور الكلدانيين كانت في اوّل امرها دار مملكة وكان بها مقام الكهنة وفيها من الهياكل ما لا نظير لهُ سعةً واتقانًا حتى كانت مركز الدين عندهم وهي التي دُعي منها ابرهيم الخليل عم حين امرهُ الله بالهجرة الى ارض كنعان وذلك في اوائل القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد . ويستفاد من الكتاب المقدس ان كدرلعومر العيلاميّ كان مقيمًا بها في عهد ابرهيم المذكور وفي الآثار ما يؤيّد ذلك وقد عُلِم منها ايضًا ان بعض تلك الهياكل من بنائهِ. وفي آثار اخرى ان اورخامس هو الذي حصّنها وبنى عليها سورًا ضخمًا وجعلها مباءةً للمُلْك وذلك قبل عهد كدرلعومر بزمنٍ مديد وشاد فيها هرمًا عظيمًا تخليدًا لذكرهِ يظنّ بعض الناس انهُ هو الهرم الذي زعم كثيرون انهُ برج البلبلة المذكور في الكتاب . وقُرِئَ على بعض تلك الآثار انهُ ابتنى في اور هيكلاً فاخرًا جعلهُ لمعبود القمر وقد كشف الافرنج هذا الهيكل ووجدوا على حائطٍ منهُ صورة اورخامس وكتابات بالقلم القديم تشهد بانهُ هو بانيهِ. ومن ملوك اور إسمي داجون وتُنسَب اليهِ هياكل بناها لمعبودي الشمس والقمر وفي عهدهِ بلغت اور ذروة العزّ والشهرة حتى صارت كما في بعض الآثار فريدة

المدن . وكان نقل العاصمة منها الى مدينة بابل في عهد همورابي ومنذ ذلك الحين استتبت في اور الراحة والسكينة لخلوّها عن قلاقل المُلك وانحياز من يقصدها بالشرّ الى مقام المَلِك في بابل غير انهُ فاتها بعد ذلك ما كان يتوارد اليها من اسباب الغنى والثروة وانتقل كل ذلك الى مدينة بابل. وآخر من يذكر من الملوك على آثارها نبونيدوس وكانت وفاتهُ سنة ٥٤٠ قبل الميلاد ولم يكن لهُ آثار كما لغيرهِ ممن سلفهُ . واور اليوم خراب تام و يعرف موقعها بالمغاور وقد كشف فيها اهل البحث من الافرنج قبورًا قديمة العهد جدًّا وهي في داخل الارض مبنيةً بالآجرّ طول الواحد منها سبع اقدام في ثلاثٍ عرضًا وخمسٍ سمكًا . ومعظم ما بقي من اخربتها بقايا هياكل لسين وهو الاله لم سيُذكَر بُعيد هذا ولعلّ ما يجاور اور من البلاد انما سماهُ اليونان باسم مسيني اشتقاقًا من اسم هذا الاله لكثرة تماثيلهِ فيها . اما تسمية هذه المدينة بأور ففيها اقوال اشهرها انها سمّيت بذلك لحصانتها ومعنى اور الحصن وقال آخرون انها سمّيت بذلك لكثرة هياكل النار فيها ومعنى اور في لغتهم النار ولعلهُ الاصح . واور هذه في راي اكثر المحققين انها كلنة القديمة وموقعها في المكان الذي يقال لهُ المغاور على ما اسلفنا ذكرهُ وذلك قرب ملتقى نهري دجلة والفرات . ومنهم من يقول انها مدينة أورفا الحالية استدلالاً بقرب موقعها من حرّان مع تقارب الاسمين وهو منقوض بما اوردنا ذكرهُ من شهادة الآثار وقيل غير ذلك مما لا فائدة من استيفائهِ والله اعلم

ذكر مدنٍ اخرى ببابل * ثم انهُ ورد في الفصل العاشر من سفر الخلائق ذكر اربع مدن في ارض شنعار وهي بابل وارك وأكّد وكلنة وان هذه المدائن كانت اوّل مُلك نمرود ولم يُذكَر ان نمرود هو بانيها ولذا يصحّ ان يقال انها كانت قبلهُ وان الطورانيين وهم اوّل من وفد على مملكة بابل هم الذين ابتنوها . والذي ظهر بعد مطالعة الآثار ان هذه المدن الكبيرة ما برحت عواصم للملوك تلك البلاد وعلى الخصوص في بعيد الازمنة لانفرادها اذ ذاك باتساع الثروة وكثرة العمران وانحطاط سائر المدن المشهورة عمّا بلغتهُ من المَنَعة والأُبّهة.وكان فيها مقام الامراء واعيان الدولة وكان من تبوّأ منهم اريكة الملك يجعل سريرهُ في المدينة التي وُلِد فيها ويسمي نفسهُ ملك الاقاليم الاربعة يعني المدن الاربع المذكورة اشارةً الى انها كلها في حوزتهِ وتحت ظلهِ وان لم يكن مُقامهُ الا في احداها . ولم تلبث هذه المدن عقب ان بدأ فيها الخراب الا قليلاً حتى صارت قاعًا صفصفًا بعد ان خدمها العزّ نحو عشرين قرنًا من الدهر ولم يبقَ منها الى عهدنا هذا سوى رسوم دوارس لا تزيد على معرفة مواقعها القديمة في الجملة . فاما تمييز بعضها من البعض الآخر باسمائها فلم يبقَ عليهِ دليل وانما الناس يأخذون في ذلك بالظنّ فمن قائلٍ ان مدينة أَرَك هي المعروفة اليوم بورقاء او ارقاء وموقعها على عدوة دجلة عند حدود بابل وشوشانة . وذهب قومٌ الى انها هي التي كانت تُعرَف عند

الاقدمين بايذسًا وقيل بل هي أُورخوه التي ذكرها جماعة من متقدمي المؤرّخين وقالوا انها على نحو اربعين ميلاً من بابل . ولعلَّ الصحيح كما قاله بعض المحققين انها كانت في موقع الاخربة المعروفة اليوم بالأَراق ومنها اشتقَّ اسم العراق وموقع هذه الاخربة بين مدينة الحلّة وملتقى نهري دجلة والفرات وجميعها قديمة عهدٍ بالخراب ومعظمها بقايا هياكل لسين وبعض ابنيةٍ اقامها ملكٌ من ملوكها كان يقال له سين سيّد . وسين عندهم اسمٌ للقمر وكانوا يعبدونه في ارك وما يجاورها ولذلك كانوا يسمّون ارك مدينة القمر وكانت له فيها هياكل كثيرة وكان اكثر الملوك الذين تبوّأُوا سريرها في ذلك العهد يقرنون اسماءهم بلفظة سين تبركًا كسين سيّد المذكور وقمرسين ونارام سين الى غير ذلك

واما أكّد فموقعها الى الشمال الشرقي ممّا بين النهرين وهي التي يقال لها نيبور اي مدينة الاله الكبير وتُسمى ايضًا نيغار اي مدينة اله الارض يعنون بهِ ملك الملوك وذلك لان ملوكها حينئذٍ كان لهم التقدم على سائر ملوك تلك البلاد . وقد وُفِّق فيها منقّبو الافرنج الى الوقوف على بقايا هيكلين من بناء اورخامس احدهما لاله الجلد والآخر لبيليت ناوُت أُمّ الآلهة . وهناك اخربة شتى غير هذين الهيكلين يقولون انها من نحو اربعين قرنًا وعليهِ فيكون عهدها قبل استيلاء العرب على بابل بزمنٍ بعيد وفي جملة ما وُجِد فيها حلًى معدنية ضخمة الاشكال تدلُّ على نقادمها . ومن الناس من يزعم ان ارك هذه هي مدينة نصيبين استنادًا الى تقليدات كانت عند اليهود في ايام ايرونيموس وفي ذلك كلهِ اقوالٌ وآراءٌ شتى لم يصل الى تحقيقها ارباب البحث فنقتصر منها على ما ذكر . واما كلنة فهي التي يطلق عليها اهل البلاد اسم المدينة واكثر المحققين على انها هي أُور الكلدانيين على ما قدّمناهُ قريبًا في الكلام على هذه المدينة

ومن مدن بابل التي كشفها المتأخرون مدينة صغيرة ذكروا ان بانيها الاوّل اورخاموس وكثير من اخربتها باقٍ الى اليوم . وقام بعدهُ ساغركتياس وهو الذي بنى فيها الهيكل العظيم الذي ذكرهُ بيروسوس وقال انهُ مبني في نفس الموضع الذي خبأ فيهِ اكسيسوثروس حين الطوفان السجلات المسطر عليها تاريخ الخليقة واخبار الايام الاولى واسرار التنجيم والكهانة وغير ذلك . وقد كشف هذا الهيكل بعض سيّاح الافرنج فوجدوا في جملة ما كان فيهِ آنية من المرمر الابيض الخالص وهي مزخرفة غاية الزخرفة وعليها اسم نارام سين ومعناهُ المبتهل الى سين وهو من ولد ساغركتياس مشيّد الهيكل المذكور . وقال الباحثون ان الكتابة التي وُجِدَت على الآنية المذكورة هي اشبه بالكتابة الموسومة بها ابنية اورخاموس فاستدلوا بذلك على ان هولاء الملوك طائفة واحدة

ومنها مدينة ايس او ايوبوليس وموقعها على الضفة الغربية من النهر المنسوب اليها وهو يدفع في الفرات على مقربةٍ منها . واشهر من ذكرها من القدماء هيرودوطس فقال انها تبعد ثمانية ايام عن

بابل وموقعها على نهرٍ يُسمّى باسمها يجرُّ ماؤُهُ كثيرًا من الحُمَر ومنهُ كان البابليون يحملون الحُمَر لبناء اسوار مدينتهم اه . وقد درثت هذه المدينة من زمنٍ مديدٍ وكان اعظم اسباب خرابها مجاولة امراء العرب فيها منذ ايام الجاهلية. وعلى موقعِ اخربتها اليوم قرية حقيرة تُعرَف بهيت وفيها كثير من النخل على ضفتيِ النهر ومن حولها الحُمَر وفيها ينابيع من النفط قد اشتهرت بسببها . وسكانها يقاربون الف نسمة ومعظم ابنيتهم من الحصى المتلاحمة بالحُمَر واللِبن

ذكر مملكة أشُّور

أشُّور بتشديد الشين اقليم كبير متسع من آسية تعرَف ناحيتهُ اليوم بكردستان وهو كريم البقعة غاية في الخصب يخترقهُ انهارٌ اربعة كبيرة احدها نهر دِجلة وليس في ذلك الاقليم احسن منظرًا منهُ ولا اقوى اندفاعًا ولا اكثر سرعةً في سيرهِ يضاهي الفرات وبعدهُ نهر اربيس ونهر غرغوس ونهر زابيس . ويتخلّل هذا الاقليم جبال متشعّبة واودية كثيرة كانت مشحونة بالبساتين الانيقة والجنات النضيرة الّا ان اكثرها اليوم قد عاد قفرًا غامرًا . وكان لاشور من المدن الكبيرة والقلاع الحريزة والضياع الخصيبة شيءٌ كثير جدًّا وكانت في اوّل امرها ضيقة البقعة قليلة العمران وفيما ذكرهُ موسى النبي عم ما يستفاد منهُ ان حدّها الغربي لم يكن يتجاوز دِجلة وليس في كلامهِ ما يدلُّ على انها كانت مملكة في ذلك العهد ولكنها عقيب ذلك اخذت تتوسع بكثرة الابنية والسكان ومدّ العمارة حتى بلغ طولها خمس مئة ميل في عرض نصفها فيما يقال على التقريب فتكون مساحة ارضها ما ينيف على مئة الف ميلٍ مربع

وقد خبط المتقدمون في الكلام على اشور خبطًا عجيبًا لا يكاد يتخلّص منهُ تحقيق تاريخها. واغرب ما هنالك ان ديودورس لم يفرق بين اشور وسورية لانهُ يقول في بعض كلامهِ عن هذه المملكة ما معناهُ ان نينوس رام ان يخلّد لنفسهِ ذكرًا ويصنع ما يعقبهُ فخرهُ فاخذ في بناء مدينة كبيرة في سورية يُقِرُّ فيها سرير ملكهِ ويجعلها مباءةً لهُ ولاعقابهِ بحيث لايكون لها شبيه ولا يُخيَّل بناء مثلها على ممرّ الاحقاب . فحشد اليهِ العملة والصنّاع من طوائف شتى وبنى أُسُس المدينة على شكلٍ مستطيلٍ ثم حوّطها بسورٍ اكثر ما بلغ طولهُ ١٥٠ استادة واقل ما كان عرضهُ ٩٠ استادة فيكون طول السور اربع مئة وثمانين استادة . وكان ارتفاعهُ مئة قدم وثخنهُ بحيث تجري عليهِ ثلاثُ من العجلات صفا واحدًا. وابتنى على السور بروجًا تبلغ الفًا وخمس مئةٍ عدًّا وهي تعلو السور بمئة قدم وارتفاعها من الارض مئتا قدم. قال ولما اتمّ نينوس هذه المباني ودعا الناس لسكنى المدينة سماها نينوى باسمهِ والتقى فيها

خلا الاشوريين وهم اعيان المدينة امم وقبائل شتى تتباين مذهبًا ومشربًا وما لبثت المدينة الاَّ يسيرًا حتى صارت من اشهر المدن انتهى ببعض اختصار . وقال هيرودوطس في وصفهِ لاشور انها تشتمل على كثير من المدن الكبيرة وان اعظم تلك المدن مدينة بابل وقد اتخذها ملوك البلاد عاصمة لهم منذ خراب مدينة نينوى اه . فعدَّ بابل من جملة مدن اشور واجماع المحققين على خلافهِ ثم ذكر ان بابل انما اتُّخِذَت مباءةً للملوك منذ خراب نينوى والذي نعلمهُ ان غير واحدٍ من ملوك الكلدان في بابل وملوك اشور في نينوى كانوا متعاصرين في آنٍ واحدٍ

واوَّل من ذكر اشور على حقيقتها بطليموس الفلكي المشهور وهو من اعلام القرن الثاني للميلاد . قال يحدُّها شمالاً القسم المحاذي لجبل نيوانا من ارمينية الكبرى وغربًا بعض ما بين النهرين وهو الجهة التي تُسقَى بماءِ دجلة وجنوبًا مملكة شوشانة وشرقًا مملكة مادي وفيها ثلاثة انهر تنتهي الى دِجلة بعد ان تسقي معظم اراضيها وهي ليكوس وكابروس وغرغوس . قال وتنقسم اشور الى عدَّة اقسام احدها ارهباخينس ثم ابولونياتس وموقعها بين سيتاكينا وبلاد الغراميين ويليها بلاد السمباطيين ثم بلاد الغراميين وفي جنوبي اذيابينة كلكينيكي ويليها اقليم اربلة . وقد ذكر كثيرًا من مدنها باسمائها مع تعيين درجات طولها وعرضها كنينوس ومردة واكتزبفون وغوغاملة واوزابا وسيتاكي وغومارا وابولونيا واسوخيس وغيرها وجملة ما عدَّدهُ منها اربع وثلاثون مدينة تختلف عظمةً واتساعًا لكنهُ لم يذكر بينها راسن ولا اولبيس ولا مسفيليا وقد كُنَّ من اشهر المدائن في تلك الناحية فالظاهر انهُ اقتصر على ذكر المدن التي عاينها بنفسهِ لان هذه كانت في عهدهِ قد صارت الى تمام الخراب ولم تبقِ لها الايام اثرًا ·

ذكر مدينة نينوى * كانت هذه المدينة ابعد مدن اشور شهرةً واعظمها شانًا حتى لم يكن في تلك البلاد اشد منها سطوةً ولا اوسع ثروةً وعمرانًا ما خلا مدينة بابل فانها كانت اوسع منها مساحةً واضخم اسوارًا وافخم ابنيةً الاَّ ان بلوغ كلٍّ منهما حدَّ عظمتها لم يكن في زمان واحدٍ لان بابل بلغت مبلغها من العمران والابهة بعد ان اخذت نينوى في التراجع والانحطاط . وكان معظم شهرة نينوى في عصر سنحاريب واعقابهِ وكانت دار ملكهم ومباءة سريرهم وكانت تساق اليها الارزاق وتحتشد اليها الناس من كل وجه والمُلك يزيدها جاهًا وفخامةً حتى بلغت من العزّ والسطوة والغنى ما لم تبلغهُ مدينة اخرى في ذلك العهد . وما زالت على حالها تلك من النموّ والعظمة الى ان تفرَّغ اهلها للذات والملاهي ودبَّ فيهم داءُ الترَف ونَعمة العيش فزحف عليهم البابليون وافتتحوا المدينة ودمَّروها وحملوا ما فيها من الغنائم والاموال فعادت قاعًا صفصفًا . اما باني نينوى فعلى ما في رواية موسى عم (تك ١٠ : ١١) انهُ اشور بن سام وقد بنى مدنًا اخرى ذكرها هناك . والاشوريون يزعمون انها سُمِّيت

باسم اشور كبير آلهتهم وان هذا الاسم يُطلَق بالاشتراك على كل ملك من ملوكهم تبركًا وهم الذين بنوها . وفي كلام بعض الباحثين ان بانيها اعقاب نمرود ملوكُ بابل ونواحيها ولم نرَ ما يؤيّد هذا القول وفي الكتاب ما يعارضهُ بالنصّ الصريح . وذهب المؤرّخون من اليونان والرومان وتابعهم بعض المتأخّرين الى ان اوّل من وضع أُسُسها نينوس وقد تقدّم في ذلك كلام لديودورس والله اعلم

اما موقع نينوى فالمؤرّخون فيهِ على اقوال اشهرها ما ذهب اليهِ هيرودوطس واسترابون من انها كانت على عدوة دجلة شرقًا وهو موافق لما تقدم من رواية موسى عم في الكلام على حدّ مملكة اشور وهو الصحيح . ولا يُعلَم من امر مساحتها الاّ ما ورد في سفر يونان حيث يقول ما صورتهُ ان نينوى مدينة كبيرة لله مسيرتها مسيرة ثلاثة ايام . الاّ ان في هذا الكلام ابهامًا لا يخفى فلا يُدرَى هل المراد بالمسيرة طول المدينة كما هو المتبادر ام محيطها ام المدّة التي تُقطَع في مطافها كما قال بكلٍّ جماعة من المفسّرين . ولا يخفى ان الاوّل فاحش جدًّا ولم يُنقَل فيما علمنا ان مدينة بلغ طولها هذه المسافة والاخير بعيد عن ان يكون هو المراد لقلّة جدواهُ في تقدير المساحة فلعلّ المقصود هو الثاني والله اعلم

ثم ان الذي يتحقق من التاريخ ان نينوى لم تكن دارًا للمُلك قبل الالف قبل النصرانية وكانت قبلها مدينة راسن هي اعظم مدينة في اشور كما يستفاد من سفر التكوين من الموضع المشار اليهِ قُبَيل هذا . وقد خربت نينوى مرتين عن آخرها المرة الاولى سنة ٧٨٨ قبل الميلاد على يد ارباش المادي وبعليزيس الكلداني وكانت بينهما محالفة فزحفا عليها بجيوشهما والمالك فيها يومَ ذاك سردنابال وكان ملكًا جبانًا واني الهمّة ضعيف الراي منقطعًا الى مجالسة النسآء وسماع الاغانيّ . فلما طرقهُ خبر العدوّ وايغالهم في ارضهِ افاق من لهوهِ فحشد لهم وخرج عليهم بجموعهِ والتحم القتال بين الفريقين فكانت الغلبة في اوّل الامر لاشور ثم كانت الكرّة للعدوّ فظهروا عليهم ودارت في الاشوريين رحى القتل فابادوا منهم خلقًا كثيرًا خلا من اسروهُ . فنكص سردنابال على اعقابهِ حتى اتى المدينة فدخلها بمن معهُ واعتصم بها وجدّ العدوّ على اثرهِ فحصروهُ بها زمنًا مديدًا تواترت فيهِ الحرب بين الفريقين وقُتِل من الجيشين عدد لا يحصى واجلت العاقبة عن قهر سردنابال فدخل العدو البلد واسرفوا في القتل والنهب واستباحوا كل من صادفوهُ بحد السيف . فلما رأى سردنابال ما حلّ بهِ وبقومهِ جمع حطبًا والقى عليهِ امتعتهُ وامواله وجواهرهُ واضرم فيهِ النار ثم دخل هو واولادهُ ونساؤُهُ في جوف اللهيب وتبعهُ من يتصل بهِ من رهطهِ وحشمهِ فكان آخر العهد بهم . وانثنى العدو على المدينة بالاحراق والتخريب ولم يخرجوا منها الاّ وقد غادروها ركامًا

وبعد مضيّ ما شآء الله من الزمان انتعش الاشوريون من كبوتهم تلك ورجع اليهم ملكهم واستقلالهم وعادوا فرمموا مدينة نينوى وردُّوا اليها سرير الملك الى ان قام سنحاريب الذي سبق الالماع الى شيءٍ

من شانهِ فزادت بهِ نينوى عزّةً وفخامةً وتناهى حالها في الجلالة . وله على بعض الآثار هناك ما معناهُ اني قد اعدتُ بناء جميع عظائم نينوى دار سلطنتي ومستقرّ ملكي وجدّدتُ شوارعها القديمة وما كان منها ضيّقًا وسّعتهُ وحوّلت المدينة من ساحة الخراب الى مثل بهاء الشمس اه . وكان لسنحاريب قصرٌ في وسط المدينة بناهُ له ولمن يخلفهُ على سرير اشور وكان من احسن ابنية نينوى بهجةً وزخارف واتمها احكامًا واوثقها متانةً قد افرغ فيهِ البنّاؤون جهد صناعتهم وسقّفهُ بخشب السرو والارز. ولما فرغ من بنائهِ امر ان يُنقَش على احد جدرانهِ ما مفادهُ ان هذا القصر سيصبح حينًا قديم العهد جدًّا فياخذ منهُ كرور الاحقاب ويغيّرهُ توالي العصور فانقدم الى من يتولّى عهد هذا المُلك من بعدي ان يُعنَى بتجديد ما يرثّ من بنائهِ وتعهّد ما فيهِ من الصور والمشاهد واناشدهُ ان يطرّس على جميع الكتابات القائم بها تذكاري كلما طمس شيءٌ منها اعاد رسمهُ . اقول طوبى لمن يأتمر بهذا وعليهِ رضوان اشور وعشتار الالهين العظيمين والويل لمن نبذ هذه الوصيّة ظهريًّا واشور ربي جلّ جبروتهُ ينزل بهِ ضرباتهِ الشديدة وسخطهُ العظيم ويخلعهُ عن ملكهِ ويحطم صولجانهُ ويسلبهُ سلاحهُ . انتهى

واستمرّت نينوى على حالها تلك من علو الشان ونفوذ السطوة الى ان خربت المرة الثانية سنة ٦٠٦ قبل الميلاد وقيل سنة ٦٢٥ على اختلافٍ سنورد تحقيقهُ فيما بعد . وخلاصة ما كان من خبرها انها لما امتدّت شوكتها وقوي عضدها كانت الواقعة بينها وبين الماديين لما بين الفريقين من الحزازات القديمة فقهرتهم وضربت عليهم الجزية فكانوا يحملونها كل سنة الى نينوى . فكان ذلك في انفس ملوك مادي الى ان افضى امر المُلك الى كياقصر فعزم على مناهضة الاشوريين وبعث الى نبوبولاصر ملك الكلدان يستجيش بهِ ويذكّرهُ ما بين اسلافهما من الولاء على ما سبق ذكرهُ . فاجابهُ نبوبولاصر بالرجال والاهبة وحشد كياقصر قومهُ ونزل على نينوى فحاصرها وعلى سريرها يومئذٍ اساراقوس فضايقهُ اشد المضايقة وقويت صدمتهُ لها فاستفتحها عنوةً واعمل فيها السيف والنار وفتك في اهلها فتكًا ذريعًا فكثر فيهم القتل والسبي والنهب وانتشر الخراب في المدينة اياماً متوالية حتى دُكّت عن آخرها دكةً واحدةً وعادت كأن لم يسبق بها عهد وفرّ من افلت من الاشوريين فتشتتوا في الآفاق ولم يجتمعوا بعدها . واما الملك فكان من امرهِ انهُ لما رأى العدوّ في المدينة اشفق من وقوعهِ في ايديهم والتنكيل بهِ فقتل نفسهُ بسلاحهِ وانقرض مذ ذاك ملك اشور آخر الدهر

هذا جملة ما انتهى اليهِ اهل البحث من وصف هذه المدينة العظيمة وان هو الاّ وشلٌ من بحرٍ او ثمدٌ من قطرٍ وقد بقي وراء تلك المشاهد الخَرِبة والمناظر الموحشة من العظمة والاقتدار والحكمة والثروة والعزّة والجمال والبراعة والانتقان ما لا يعلمهُ الاّ الله تعالى وحدهُ . واغرب ما هنالك ان هذه المدينة مع كل ما بلغت اليهِ اوان عزّها من الشهرة والفخامة لم يذكرها احد من متقدمي المؤرخين ولم تلبث بعد

خرابها ان صارت نسيًا منسيًا حتى ذهبت عنا جميع اخبارها واصبحت معرفة احوالها موقوفة على توسّم تلك المجاهل واستنطاق صداها . وقد عاين زينوفون تلك الاراضي بعد خرابها بقرنين ولم يحكِ شيئًا من وصف ما رآهُ من نينوى وكذا مؤرخو الاسكندر لم يوردوا لها ذكرًا مع انها كانت قبلهم بزمن يسير من اعظم مدن العالم . وفي الجملة فانهُ لم يُعلَم احدٌ نقل عنها شيئًا قبل القرن العاشر للميلاد واوّل من وصفها بنيامين تودالوس اليهودي وقد قدم الموصل فروى عنها وعن الآثار التي شاهدها اذ ذاك كلامًا طويلاً يقول في جملتهِ والموصل التي كانت قديمًا تُعرَف باشور الكبرى هي اعظم مدينة بفارس يسكنها سبعة آلاف من اليهود او يزيدون قليلاً وهي مدينة ذات جمال وسعة موقعها على عدوة دِجلة وهو الفاصل بينها وبين نينوى . قال ونينوى هذه مدينة قديمة قد آلت الى تمام الخراب والى الآن آثار سورها ظاهرة وهو مناهز الدروس والامّحاء وهناك آثار عديدة للاشوريين اصحابها يُستدَلّ بها على انها كانت من العزّة والحسن بمكان اه

ويُعرَف موقع نينوى اليوم بقيونجك وهو اسم تلٍّ هناك يبلغ محيطهُ ٢٥٦٣ بردًا وارتفاعهُ ٤٣ قدمًا وحواليهِ اخربة مبثوثة على مدًى متسع يحيط بها اثر سورٍ يبلغ طولهُ من الغرب ٢٦٠٠ برد ومن الشرق ٤٥٠٠ برد ومن الشمال ٢٠٠٠ برد ومن الجنوب ١٢٧٠ بردًا . وعلى طول الجهة الغربية منهُ اثر سورين آخرين يليان السور المذكور من داخل ولا يُرَى ذلك في الجهات الثلاث الأُخَر وهو من جملة تلك الغرائب . واوّل من احتفر في قيونجك رجلٌ من الفرنسيس يقال لهُ بوتا كان متوليًا القنصلية الفرنسوية بالموصل وذلك في اواسط القرن الحالي على ما سنذكرهُ قريبًا . وجاء بعدهُ اللورد لايرد الانكليزي فامعن في الحفر والبحث زمانًا وكان في جملة ما كشفهُ قصر سنحاريب المقدّم ذكرهُ وهو بناءٌ كبير يُعَدُّ في جملة عظائم تلك الاعصار حتى يقال انهُ لم يكن اعظم منهُ الّا ما اشتهر من ابنية بابل وقد بلغ طول حجرة فيهِ مئة وثمانين قدمًا . وكان هذا القصر مزينًا بجميع ضروب الزخرفة وفيهِ كثير من تماثيل الثيران ذات الرؤوس البشرية يبلغ طول الواحد منها نحو عشر اذرع وهناك صور عديدة ومشاهد صيدٍ وغيرهِ انيقة الصنعة . وابدع تلك الصور شكلاً واكملها صناعةً صورة سنحاريب وبجانبهِ رجال من بني اسرائيل ينكل بهم وصورةٌ اخرى تمثلهُ على عرشهِ وهذه حملها الانكليز الى لندرة . وبعد انصراف لايرد من هناك جاءَ لوفتس الفرنسوي سنة ١٨٥٤ فكشف اشياءَ اخرى اجلّها قصر لسردنابال الخامس المعروف باشّور بنيبال وجد فيهِ تحفًا كثيرة فحمل منها جانبًا كبيرًا بقصد ارسالهِ الى باريز فسقط منهُ في دِجلة ولم يسلم الّا اشياءَ قليلة في جملتها صورة سردنابال المذكور صاحب القصر وقِطَع من الآجرّ عليها كتابة بالقلم المسماري

ذكر مدينة خرساباد * وممّا اشتهر من مدن اشور خرساباد وكانت تُسَمّى بصاربوكين وهي

اليوم قرية دنيئة من كردستان واكثر سكانها عرب واكراد . وكانت هذه المدينة ومدن اخرى من اشور قد عفا رسمها وذهب اثرها تحت الردم والانقاض من نحو الفي سنة حتى قدم الموسيو بوتا المشار اليهِ قُبَيل هذا وهو اوّل من كشف هذه المدينة . وكان في جملة ما كشفهُ فيها قصر لسرجون وليّ عهد شلمناصر الرابع وحواليهِ ابنية اخرى تُعزَى اليهِ وهي على ستة عشر كيلومترًا من نينوى الى الشمال الغربي . وفي اواسط تلك الابنية رابية مصنوعة على نحو الرابية المؤسس عليها هيكل سليمان عم وفي قمة الرابية سطح مربع طول كلٍّ من جهاتهِ ٢٠٠ متر وعليهِ بنى القصر وحوّط الرابية بسورٍ لكلٍّ من جهاتهِ ١٩٠٠ متر طولاً . وكان للقصر باب كبير يُدخَل اليهِ من الخارج وعلى كلٍّ من جانبي الباب ثور هائل لهُ راس بشر وسائر الباب مزين بكثيرٍ من ضروب النقوش وعجائب الاشكال والتصاوير . وبجانب الباب من الداخل سلم طويلة يرتقى منها الى سطح القصر وهو شاهق في الجو مشرف على جميع ما هنالك من الضواحي ليس في تلك الناحية كلها احسن منهُ مُطلاًّ ولا ابعد مدى للناظر . وقد بقي من زخارف القصر في داخلهِ وبديع نقوشهِ واشكالهِ ما يدلُّ على انهُ كان من الجمال والاتقان بمكانٍ لا يدانيهِ كثير من ابنية تلك الاعصار وآثارهُ الى الآن لا تزال اكمل وأبين من جميع ما شوهد من الابنية الاشورية ولم يبقَ في شيءٍ منها ما بقي فيهِ من الادوات والمناظر المشخِّصة كثيرًا من شؤون اهلهِ . وبجانب القمة التي عليها القصر قمة اخرى ادنى منها ارتفاعًا واصغر حجمًا عليها بناء آخر تابع للقصر وهذا البناء ينقسم الى قسمين . فصار جملة القصر وما يليهِ ثلاثة اقسام احدها وهو القصر المذكور بلاط الملك وبناؤُهُ من الآجرّ وفي داخلهِ حُجُرات فسيحة يبلغ طول الحجرة الواحدة مئة وست عشرة قدمًا وكلها مزينة بالنقوش والصور والآنية الذهبية والفضية والعاجية والخزفية والتروس والسيوف وكثير من الاسلحة المنوَّعة والادوات المصنَّفة والتحف الجليلة والبقايا الثمينة . وهي ست حجرات من هذا النمط وعلى جدرانها صور من الانسان والحيوان مختلفة الحركات والهيئات فمن ملك وجنود وجبابرة ومعارك وحصارات وفتوحات ومن قاتلٍ اسدًا ومساورٍ نمرًا ومجهزٍ على عدو وذابحٍ ذبائح وساجد للآلهة ومن عساكر يخرجون في القتال وقتلى يقاسون النزع وغير ذلك مما يطول شرحهُ ولا يسعنا بسط العبارة فيهِ وكثير من هذه الصور ما برحت الى اليوم على الوانها الاولى وذلك شاهد يؤيد صحة ما نقلهُ ديودورس عن اكتزياس من بقاء الالوان فيما شاهدهُ في بقايا بابل على ما اسلفنا ذكرهُ . وهناك وُجِد عرش الملك مرصعًا بالعاج وغيرهِ من الجواهر الكريمة . والقسم الثاني وهو شطر البناء الاصغر المبني على القمة الاخرى دار الحرم وفيهِ ثلاث حُجُرات فقط الّا انها اكمل اتقانًا من حجرات البلاط وابهى زينةً واكثر ادواتٍ وامتعة وقد وجد فيهِ سيّاح الافرنج من الذخائر والنفائس ما يجلّ عن الوصف ولا يقوَّم بثمنٍ . ويصل بين هذا القسم وبلاط الملك سَرَبٌ تحت الارض ينزل فيهِ الملك

اذا اراد الانفضاء الى دار حرمهِ . والقسم الثالث متصل بهذا القسم مبني على الناحية الاخرى من القمة المذكورة وهو على شكل القسم المقدَّم وفيهِ حجرة نقيم بها الحشم والخدم ومن حولها مساكن بعضها للعبيد وبعضها للكراع والسائمة. وبين دار الحشم والبلاط رواق طويل وهو غاية في الانقان والزخرفة وفيهِ وجد الفرنسيس النفائس التي استصحبها سرجون الملك بعد فراغهِ من فتوحاتهِ وكاثر بها سائر الممالك . ووجدوا هناك ايضاً كثيرًا من الآنية والجفان والادوات المختلفة فحملوها الى باريس ولا تزال هناك الى هذا اليوم . وفيما يلي دار الحرم اخربة على شكل هرمٍ من الرفات ذكر بعضهم انهُ كان مدفنًا لاحد ملوك أشور قصد بهِ محاكاة الفراعنة المصريين ونقبُّل اهرامهم وذهب آخرون الى انهُ المرصد الذي ذكرهُ سرجون غير مرة وقد تبينوا بعد البحث انهُ كان مبنيًّا من سبع طباق تعلو بعضها بعضًا في العنان كل واحدةٍ منها اصغر من التي تحتها حتى يُنتهَى الى السابعة وهي اصغرها . وقالوا انهُ كان لكل طبقة لون يخالف الوان البقية وكل لونٍ لالهٍ من الكواكب وكانت اوَّل طبقة لزُحَل والثانية للزُهَرة والثالثة للمشتري والرابعة لعطارد والخامسة للمريخ والسادسة للقمر والسابعة للشمس والجميع هذه الطباق قياس واحد في الارتفاع وان كانت تتفاوت اتساعًا على ما قدمناهُ . وكان هذا البرج اشبه ببرج بورسيبا الذي ذكرهُ هيرودوطس على ما اسلفناهُ هناك . قالوا وكان المرصد في اعلى تلك الطباق فيكون لهُ طبقة ثامنة وكان الاشوريون يرقبون منهُ حركات الكواكب لمعرفة السعد والنحس وغير ذلك على ما كان من اعتقاد المتقدمين

ذكر مدن اخرى بأشُّور * ومن شهير اخربة اشور الموضع المعروف بنمرود وهو كالح القديمة على ثلاثة كيلومترات من عدوة دجلة الشرقية وبينهُ وبين خرساباد ما ينيف على اربعين كيلومترًا ويليهِ بسيطٌ من الارض ينتهي الى الموصل ومسافتهُ نحو تسعة كيلومترات . وليس في هذا الموضع اليوم الاَّ انقاض قد تراكمت امثال الجبال وبينها بقايا قد شخصت رؤُوسها في الجوّ يظنها ارباب البحث مراصد كانت لهم يرقبون منها النجم على نحو ما تقدم قريبًا . وفيما اوردهُ بعض المؤرخين ان نمرود هذه كانت دارًا لطائفةٍ من الملوك في غابر الدهر وكانت ذات عزٍّ ومَنَعَة وآثار ذلك فيها الى الآن . وقد وجد بين اخربتها اسم نبوزكيبوكين وابنهِ مرودخ موبازا وهما فيما قالهُ بعضهم من ملوك الاشوريين وقال آخرون انهما من الملوك الذين مردوا على اشور وخلعوا طاعتهم وايٌّ كان من القولين فهما قديما العهد جدًّا

واوَّل من احتفر في نمرود اللورد لايرد الذي تقدَّم ذكرهُ فاستبان آثار قصورٍ جمَّة محكمة الصنعة مزيَّنة بالنقوش وعجائب الاشكال وصُوَر الملوك والآلهة واحدٌ منها يُعزَى الى سردنابال الثالث المعروف باشور نزربال وكان في خلال القرن العاشر قبل الميلاد وآخر ينسَب الى اشور بانيبال

ابن اسرحدُّون الذي قام بالملك بعدهُ وكان في منتصف القرن السابع . وهما قصران ضخمان يروعان الناظر عظمةً واتقانًا والثاني منهما اوسع بنيةً واتم رونقًا في نظر المتأمل وكلاهما مشحونان بصُوَر الناس على اختلاف حركاتهم وملابسهم ومشاهد الصيد والمعارك وصُوَر الآلهة والملوك وتماثيل الحيوان ما بين اسود وذئاب وانمار وبنات آوى وابعرة وثيران وشياه الى غير ذلك مما يطول وصفهُ . وفي قصر اشور بانيبال منها وجد الافرنج مكتبة جامعها اشور بانيبال صاحب القصر فاحتملوها الى اوربا وفيها كثير من بيان تاريخ هذا الملك واعمالهِ على ما هو معلوم من دأْب اولئك الملوك ان يدوّنوا حوادث عهدهم في سجلّ مخصوص يكون في بلاط المُلك تتسلسل فيهِ مآثرهم واخبارهم فتبقى على غابر الدهر . واما القصر فلو لم يظهر من آثار نمرود غيرهُ لكفى معجزةً يقف عندها المتأخرون موقف الحائر لِما هو عليهِ من احكام البناء وجمال الصنعة وما برح كل من رآهُ يدهش لغريب هندستهِ وما فيها من الدقة والتناسب البديع وهو الشاهد على ان الاشوريين كانوا في ذلك العهد قد بلغوا قمّة نجاحهم وتوسّطوا باحة علومهم وصنائعهم . وفي هذا القصر غرفة يبلغ مداها ١٤٠ قدمًا يتبيّن من الادلّة انها كانت مخصوصة لملاعب النساء والدعوات الحافلة . اما الاصنام والصور التي وُجِدَت في نمرود فشيء كثير جدًّا منها كبيرة ومنها صغيرة ومعظمها متقن الصنع ومنها اكثر التماثيل التي في اوربا على ما شهد بهِ الاستقراء . ومن ذلك تمثال لاشور نزربال المذكور واقفًا في طول متر وقد اخذ باحدى يديهِ منجلاً وبالاخرى عصا وفي صدرهِ كتابةٌ تبين عن امرهِ وسنوردها في الكلام عليهِ . وتمثالان كبيران لنبو عملها بعلوخوس الثالث وعليهما اسم سموراميت زوجتهِ المعروفة بسميراميس وهما الاثران الوحيدان الموسومان باسمها . وفي نمرود ايضًا مسلّة صغيرة نصبها شلمناصر الثالث ابن اشور نزربال ونقش عليها صورتهُ وصورًا اخر من الناس والحيوان وذكر فيها بعض فتوحاتهِ على ما سيجيء ذكرهُ وهي مربّعة الشكل مخروطة ذات قاعدة عريضة واعلاها ينتهي الى نقطةٍ

ومن مدائن اشور غوغاملة وصفها استرابون في كتابهِ فعدّها من اشهر الامصار الاشورية قال وفيها كانت الواقعة المشهورة بين دارا والاسكندر وكانت العاقبة للاسكندر وبها انقضت دولة الفرس الاولى فلم تعد آخر الدهر . قال ومعنى غوغاملة مُناخ البعير سمّاها بذلك داريوس بن هستاسب حين قفل من بلاد التتار وكان قد قصدها غازيًا فتوغل فيها واثخن في اهلها وافتتح الامصار وخرّب المعاقل وانتسف الحصون وعاد بالغنائم والسبي ومعهُ الابعرة تحمل المتاع . فلما تطاول بهِ السير ماتت الابعرة في الطريق وكان آخرها الهالك منها في بطائح غوغاملة فسماها بهذا الاسم فبقي ذكرًا لغزوتهِ تلك على الابد . انتهى بتصرُّفٍ

ومن مدائنها موغاملكة واربلة وكانت الاولى مدينة حصينة ذات سور متين وفيها الابنية الرائعة

والهياكل الشامخة واعظمها هيكل كان مبنيًا على قارةٍ واحدةٍ يعدُّونهُ من عظائم البنيان. وخربت هذه المدينة في سنة ٢٦٤ قبل المسيح قصدها بوليانوس الروماني لمحاصرها في جيش كثير وكانت الحرب في اوّل الامر سجالاً ثم اشتد عليهِ اهلها فاهلكوا من جيشهِ خلقًا كثيرًا ومالوا عليهِ ميلةً شديدة حتى كادت العاقبة تكون عليهِ. وفي تضاعيف ذلك وفدت عليهِ الوفد من اصحابهِ في نجدةٍ وعدّة فشدّد الحصر على المدينة حتى نهك اهلها واستحوذ عليها عنوةً وحاز منها الغنائم وما برح عنها حتى غادرها قاعًا صفصفًا. واما اربلة فكانت من المدن الكبيرة وكان إبان شهرتها ومبلغ عمرانها في عهد الفرس الاولى وتُنسَب اليها الواقعة التي جرت في غوغاملة سنة ٣٣١ بين دارا والاسكندر على ما مرّ ذكرهُ فيقال لها واقعة اربلة. وهذه المدينة تنقسم اليوم الى قسمين متميزين احدهما اربلة القديمة وهي مبنية على رابية هناك وعليها سور قد ذهبت بهِ الغارات والايام ولم يبقَ منهُ لهذا العهد الاَّ آثار. والآخر اربلة الحديثة وهي مبنية في السهل عند سفح الرابية يسكنها قوم من الاكراد ينتهون في قول بعضهم الى الكلدان وهم زهاء الفي نفس. وقد ذهب عنا معرفة ما كانت عليهِ هذه المدينة في عهدها الاوّل ولم يبقَ في آثارها ما يسفر عن امرها بيد ان الناظر الى ما بقي منها في الجملة يتبيّن انها كانت من المواضع الحصينة ذات الثروة والعمران وبها اليوم منارة ذاهبة في السماء بانيها فيما يقال واحدٌ من خلفاء الاسلام

وعلى بعد خمسة وعشرين ميلاً من جنوبي اخربة خرساباد اخربة كالح شرعات وهي غير كالح المقدم ذكرها المعروفة اليوم بنمرود. وهذه الاخربة على شكل اخربة نمرود وخرساباد وبها تلٌّ من الانقاض محيطهُ ٤٦٨٥ يردًا انكليزيًا وحولهُ بقايا سور محكم الوضع قد بني من حصى النهر. وهناك وجد الافرنج تمثالاً لشلمناصر الثالث احد ملوك اشور وكثيرًا من المدافن المصنوعة من الرخام وفيها كثير من العظام بينها حلًى من المعدن. وهذه المدينة هي المعروفة باسم ايلاصر وكانت مباءةً للملوك اشور دهرًا وفيها بنى اسي داجون الهيكل المشهور لاوانّس. ولا يزال فيها الى اليوم تمثال لملكٍ من اشور قديم العهد الاَّ انهُ ناقص لا راس لهُ ولا عنق وعليهِ لباس ضافٍ من كتفيهِ الى الارض وتحتهُ قاعدة عليها اسمهُ واسم آبائهِ

والى شرقي بغداد على اربعة اميال منها وستة اميال من نهر الفرات على ميمنة الترعة السقلاوية اخربة قديمة العهد مبنية بالآجرّ على شكل هرم يسمّيها الناس ببرج نمرود وبعضهم ببرج بابل وهي غير البرجين المقدم ذكرهما وكان اسمها الاوّل اكركوف على ما اثبتهُ نيبوهر السائح الدنمركي. وآجرُّها مربع يبلغ ثخن الواحدة منهُ ثلاث اصابع وطولها ثلاث عشرة اصبعًا في عرض مثلها وهي مرصوصة بالسياع وبين كل سبعة سيفانٍ من الآجرّ عرَقٌ من الخيزران او الأباء ليمسك البناء ان يتصدّع

على ممرّ الازمان . وفي اعالي هذه الآخربة ثقوب كثيرة تمتدُّ امتدادًا افقيًّا وبعضها تذهب عموديًّا ولها ما يشبه ان يكون بابًا ولكنهُ عالٍ جدًّا لا يُبلَغ اليهِ الاَّ بعد عناءٍ وجهدٍ عنيف لصعوبة المرتقى وتضارس البناء . وطول هذا الموضع يبلغ ١٥٨ قدمًا انكليزية وعرضهُ ١١١ قدمًا وارتفاعهُ ١٢٩ قدمًا . وهذا الارتفاع في راي بعض الباحثين هو ارتفاعهُ الاوّل لم يطرأ عليهِ نقص بدليل التراب المتلبّد في اعلى البرج حتى صار في صلابة الحجر . ومنذ قرونٍ قريبةٍ سوّل الغرور لقومٍ من العرب ان يهدموا هذا البرج لظنهم ان هناك كنوزًا وان الموضع انما كان مدفنًا للملوك فشرعوا في اسباب الهدم وقوّضوا صفحين من البرج حتى انبثَّ الآجرّ في جميع تلك الناحية وكان منتهى عملهم الفشل والرجوع بالخيبة بعد ان وهت عزائمهم وايقنوا بكذب آمالهم فلم يكن لجهدهم من معنًى سوى انهم شوّهوا هذا الاثر الجليل وتركوهُ ينادي بجهلهم وعجزهم . وقد عُني السيّاح المتأخرون بالبحث والتنقيب في آثار هذا البرج غاية ما استطاعوا لعلهم يجدون فيهِ شيئًا من الكتابة الاشورية فلم يروا من ذلك شيئًا ولعلّ هذا هو السبب الذي حمل بعضهم على نسبة بنائهِ الى احد خلفاء بني العبّاس على ما اشرنا اليهِ قبيل هذا لقرب موقعهِ من دار ملكهم . وهناك مذاهب اخرى لم لا يتاتّى الترجيح بينها لرجوعها الى الرجم بالغيب وعدم استنادها الى دليل بيّن . فمن قائل انهُ هو برج بابل المشهور وليس بشيء لان ذاك يلي دجلة وهذا يلي الفرات . وقالت جماعةٌ انهُ كان مدفنًا لاحد ملوك اشور وفي بعض الروايات ان الاشوريين كانوا قد بنوهُ مرقبًا لربيئتهم وكان اعلى مما هو عليهِ الآن ليمكن مدُّ البصر منهُ الى مدًى بعيد . وقال آخرون انهُ كان مرصدًا لهم يرصدون منهُ النجوم . وذهب جمهور اهل الجغرافية الى ان موقعهُ هو موقع مدينة اكد التي مرَّ الكلام عليها . وخالفهم قومٌ فقالوا هو موقع مدينة سيناكي وذهب غيرهم الى غير ما ذُكِرَ وعلم الله وراء ما نعلم وهو بكل شيء محيط

م

انتهى القسم الجغرافي

القسم التاريخي

الكلام على سكان بابل الاولين

قد اشرنا فيما سلف الى ما وقع من الوهم والشطط في تاريخ البابليين والاشوريين وما كان من مبادئِ امرهم وان معظم ما دبَّ في تاريخهم من فسادِ الروايات وتعارض الأنبآء انما نشأ من قبل كتّاب الفرس وعنهم نقل اليونان ما نقلوهُ من الاخبار المدخولة والاقاصيص الموضوعة . وكانت بابل فيما تقدَّم من تاريخها مجمعًا لامم من الناس واجيال شتَّى قد تباينت اصلاً وعادات وكان الملك يخاطبهم بقولهِ ايها الشعوب والامم والألسنة على ما هو وارد في سفر دانيال عم (ص٣). وكان لكلٍ من اولئك الاجيال سِيَر واحاديث يروونها فيما بينهم ويتناقلونها خلف عن سلف بعضها له اصل كالنواة من الشجرة وبعضها مختلَقٌ راسًا وشاعت هذه الحكايات بينهم حتى تأصّلت في اذهانهم ومرور الايام يلقي عليها ظل الصدق ورونق الصحة حتى اعتقدوها من الامور الواقعة ودوّنها مؤرّخو الفرس في مصنَّفاتهم على ما قدَّمناهُ واثبتوها فيما اثبتوهُ من وقائع تاريخهم فالتبس صحيحهُ بفاسدهِ وكثرت فيهِ الخرافات والاساطير وذهب فيهِ الخلل كل مذهب . ذلك مع شدة امعان اولئك الاقوام في القدم وكثرة ما لهم من الدول والانقلابات والوقائع والاخبار المختلفة والاحوال المتشعبة ممّا افضى الى اضطراب في تاريخهم وارتباكٍ لا مزيد عليهِ والجأ اهل البحث الى معالجة الحرف المسماري ومزاولة قرآءتهِ حتى وُفِّقوا الى حلّهِ فوجدوا كثيرًا من تلك الحقائق مسطّرًا على الآثار من الحجارة والآجرّ وغيرهِ وحينئذٍ انجلى لهم كثير من تلك الغوامض على ما اسلفنا ذكرهُ . ومع ذلك فان هذا الفوز العظيم والفتح الجليل لم يكن وافيًا بما كان يُتوقَّع ورآءهُ من النتائج الكبيرة فانهم استوضحوا اشياء وبقي من دون ما استوضحوهُ مشاكل جمّة ومعمّيات شتى لم يهتدوا الى جلائها وكشفها ولا وجدوا ثمّ ما يسفر عن اوّلية اولئك الاقوام واصل نشأتهم ممّا لا يزال مستورًا تحت ظل الابهام مكتومًا في صدور الايام

وقد تقدَّم ان بيروسوس الكلداني في عهد الاسكندر كان قد دوّن تاريخًا للكلدان ابان فيهِ عن شؤُونهم وتاريخ ملوكهم وما لهم من الوقائع والآثار اخذهُ عن الواح السجلاّت التي كانت في هيكل

بعلوس وقد ذهب هذا السفر الثمين في جلة ما ذهبت بهِ الايام فلم يبقَ لهُ عين ولا اثر بيد انهُ يستفاد مما تناقلهُ عنهُ المؤرخون انهُ ابتدأهُ من ذكر الخليقة وما طرأ وراءَ ذلك من الاخبار وانهُ عدَّد عشرة من الملوك تداولوا زمام السلطنة من لدن الخلق الى الطوفان وكانت مدة ملكهم جميعًا ٤٣٢٠٠٠ سنة. ولا يغرب ان يكون هولاءَ العشرة هم الآباء العشرة المذكورون غير مرة في الكتاب من آدم الى نوح كان بيروسوس وجُمَّاع الكلدان يعتبرونهم من ملوكهم وسمُّوهم باسمائهم المدوَّنة في السجلات المذكورة وسيرد مزيد تفصيل لذلك في الكلام على عقائد البابليين

ثم ان عامَّة المحققين من اصحاب التاريخ على انهُ لا يصح خبر من اخبار الامم الاولى الاَّ بعد ان تمثلت تلك الامم ممالك وتحيَّزت شعوبًا وقبائل وما قبل ذلك من احوالهم وشؤونهم فما لم يبقَ الى معرفتهِ سبيل. واوَّل مملكة ظهرت في العالم وذكرت في مصاحف التاريخ مملكة نمرود التي ورد الايماء اليها في الفصل العاشر من سفر الخليقة ولم تكن اذ ذاك الاَّ اربع مدن وهي بابل وارك واكد وكلنة وقد سلف الكلام على هذه المدن في محلهِ. ونمرود هذا هو ابن كوش بن حام بن نوح عم وكان رجلاً جبارًا مولعًا بالصيد كما يصفهُ في الموضع المشار اليهِ . وفي احاديث اليهود انهُ كان ملكًا عاتيًا على الله تعالى وانهُ هو الذي بنى برج اللغات المعروف ببرج بابل والعرب تقول انهُ القى ابرهيم الخليل في اتون النار في خبر ليس هذا موضعهُ وهو عندهم مضرب مثل في الظلم يقولون اظلم من نمرود. وينسب الى نمرود اشياءُ كثيرة تضاف الى اسمهِ منها مدينة نمرود وبرج نمرود واخربة نمرود وقد مرَّ ذكرها ومنها اصنام هائلة نقلها الافرنج الى بلادهم تُعرَف باصنام نمرود الى غير ذلك

وفي روايات المتقدمين انهُ بعد وفاة نمرود خلفهُ على المملكة ابنٌ لهُ يقال لهُ اويخوس وكان اوَّل من نصب صنمًا وعبدهُ وسنَّ عبادتهُ في رعيتهِ وكانت وفاتهُ في اواخر القرن السابع والعشرين قبل الميلاد . وقام بعدهُ ملك يُسمَّى خوماس فتألَّه في قومهِ وعبدوهُ واستمرَّت عبادتهُ فيهم بعد موتهِ. ولما هلك تولَّى بعدهُ بوراو بونغ واسمهُ فيما ذكروا محرَّف عن بعل بيور وهو احد آلهة الكلدان . ثم عقبهُ في الملك نيخوبيس وعقب نيخوبيس ابوس ثم انيبال ثم خنز بروس وفي عهدهِ دخلت العرب بابل. انتهى باختصار. وهي اخبار لا يُعتمَد عليها في راجح الراي وفي الآثار ما يعارضها وينقضها ولذلك قد اجمع ارباب البحث على ان كل خبر رُوي عن بابل قبل اورخامس غير حريّ بالوثوق ولا بارز عن ظل الشبهة لانهم بعد استغراق ما اوصلهم اليهِ البحث من كتابات الآثار وجدوا ان اقدم ما سُطِر عليها لم يتخطَّ عهد اورخامس المذكور. ونحن نبدأ هنا بذكر تاريخهِ ثم نتطرَّق الى ذكر من اشتهر بعدهُ على التوالي وما بين ذلك من الحوادث الخطيرة والوقائع المشهورة فنقول

كان اورخامس من الملوك النمروديين من ولد نمرود المقدَّم ذكرهُ واورخامِس (او اورشامِش)

لفظة كلدانية معناها نور الشمس وقد ثبت بعد البحث والنظر في الآثار انهُ السابع من هذه الدولة وهو اوّل من نقش اسمهُ على حجر ابتغاءَ الفخر وبقاءِ الذكر على الابد . ويستفاد من بقايا مدينة اور انهُ هو الذي بنى سورها وشيَّد فيها الهرم العظيم الذي ذهب بعض الناس الى انهُ برج البلبلة على ما اسلفنا الكلام عليهِ. وفيما قرَّرهُ بعض الباحثين ان اورخامس هو اوّل من اتخذ اور دارًا للملك وليس بثبت عند المحققين ولكن لاخلاف في كونهِ هو اوّل من جعل لها شأنًا وفخامةً وساق اليها من الثروة والعمارة ما فاقت بهِ اشهر المدن في ذلك العهد وحصَّنها بالسور على ما قدَّمناهُ وزيَّنها بكثير من المباني الضخمة والهياكل الانيقة وفي جملتها قصر اختصَّهُ لسكناهُ لا تزال جدرانهُ ماثلة لهذا اليوم وعلى احدها صورة تشخّصهُ ليس من ذلك العهد صورة ابدع منها صنعًا وهناك كتابات تشهد بانهُ هو باني القصر وفيها بيان كثير من شهير اعمالهِ . ولاورخامس في غير اور ابنية اخرى تُعزَى اليهِ منها هيكل لمعبود النار في لارسان وآخر مثلهُ في صفيرة وهيكلان في نيبور احدهما لاله الافلاك والآخر لتاؤُوث ام الآلهة وهي اشهر ما وجدوهُ من الابنية موسومًا باسمهِ. وكل هذه المباني على ما كانت عليهِ من الضخامة والعظم لم يأْتِ عليها الاَّ قرون قلائل حتى رثَّت قواعدها وتمزَّق قائمها خلافًا لما كانت تتوهم عليهِ في بادئِ الراي من الصلابة والقوة بالقياس الى ما يعهد من ابنية ذلك العصر ومصنوعاتهِ فان هيكل لارسان منها كان في عهد بورنبورياس احد اعقاب كدرلاعومر قد اندكَّت اركانهُ وتداعت جدرانهُ فجدَّد هو بناءَهُ على رسمهِ الاوّل وردَّ اليهِ قديم رونقهِ كما يستفاد من كتابةٍ لهُ عليهِ وبين برنبورياس واورخامس مدة لا تزيد على ستة قرون

ولما انقضى عهد اورخامس قام بالملك بعدهُ ابنهُ ايلغي ولهُ ذكرٌ على بعض الآثار يفيد انهُ اتمَّ بناءَ هيكلٍ بأُور كان قد شرع في بنائهِ ابوهُ اورخامس . وبعد ايلغي ملك ساغركتياس وكان سريرهُ بصفيرة ومن ابنيتهِ فيها الهيكل الذي تقدم الكلام عليهِ عند ذكر هذه المدينة . وقد قدَّمنا هناك انهم وجدوا في جملة ما كان في هذا الهيكل آنيةً من المرمر عليها اسم نارام سين احد اعقاب ساغركتياس المذكور واوردنا الدليل على ان ساغركتياس هذا كان من خلفاءِ اورخامس الوارثين الملك عنهُ إرث الوليّ . ونقول هنا انهُ لا يُستبعَد ان تكون اكثر الآثار التي وُجِدَت موسومةً بالاسماءِ المقرونة بسين كايرسوسين وريم سين وسين هابال انما كانت في هذا الموضع وما يجاورهُ وان اصحابها كانوا من ولد كوش من خلفاءِ اورخامس وساغركتياس بدليل ان عبادة سين كانت في بني كوش اعرق واقدم وهم الذين بثوها في ام ذلك العهد لانهم كانوا كلما افتتحوا اقليمًا او تغلَّبوا على شعبٍ تركوا فيهم عصابةً منهم تؤيّد امرهم وتبثُّ ما لهم من عاداتٍ وعبادات فيبقى فيهم اثر ذلك الفتح على الابد وهذا معلومٌ من شأن المتقدمين من الاشوريين والمصريين وغيرهم

واوّل مرةٍ افتُتِحت بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد على يد ازدرخت المادي استفتحها عنوةً بعد حصارٍ عنيف ولما دخلها فتك في اهلها فتكًا ذريعًا ومثّل بهم تمثيلاً شنيعًا وركب فيهم من العسف والجور ما لم يَسَعهم معهُ الصبر فلجأُوا الى مهاجرة البلاد فرارًا بانفسهم وخرجوا هائمين على وجوهم . وكان من حديثهم بعد ذلك انهم تألبوا يدًا واحدة وجعلوا دأبهم العيث في الارض لا يدخلون قرية الاّ وطئوها واستباحوا اهلها وارزاقها حتى بلغ معظم سوادهم الى الديار الشامية فانزلوا بها البلاءَ وفشا فيها القتل والنهب والسبي زمانًا . ثم زحفوا الى مصر وقد كثُفَ لفيفهم بمن انضمّ اليهم من نواحي الشام من اسارى وغيرهم ونفروا في عرض البلاد وشانهم ما ذُكِر حتى انبثّ شرهم وتفاقم امرهم. فاجفل لهم المصريون اجفالاً شديدًا وتاهبوا لقتالهم فكانت بين الفريقين وقائع عديدة تواترت ازمانًا وكثرت فيها الدماء من الجانبين حتى عجز المصريون عن كشفهم واجلت عاقبة الامر عن استيلائهم على معظم بلاد مصر قهرًا. ولما استقرّت قدمهم هناك ثقلت وطأتهم على البلاد وتمادوا في الظلم والفساد وبقي ذلك امرهم مدة خمس مئة سنة او تزيد الى ان كان عهد توثمس المصري فعمد فيهم الى الحيلة وعمل على تفريق كلمتهم ففسّمهم احزابًا ثم جعل يواقع كل فئةٍ على حدتها حتى بدّد شملهم وفرّق سوادهم واجلاهم عن ارض مصر اه . ولفتح ازدرخت المذكور شهرة عظيمة بين المؤرّخين وهو النكتة المعتبرة في تاريخ الكلدان فان كل حادثةٍ ذُكِرَت في مصنّفاتهم عقيب هذا الفتح وُجِدَت طباق ما هو مسطّر في تواريخ غيرهم من امم ذلك العهد خلاف دابهم من قبل ذلك فانهم كانوا يجازفون في تقرير الوقائع ما شاءُوا حتى كانوا يزيدون على سني ملوكهم قبل الطوفان زياداتٍ فاحشة على ما مرّت بك مُثُلهُ بحيث لو جُعِلَت كل سنةٍ من تلك السنين يومًا لبقيت اعظم من ان يحتملها التصديق

وفي القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد دخلت بابل في حوزة العيلاميين واستقر على سريرها منهم اثنا عشر ملكًا وكانت مدتهم جميعًا خمسين سنة او دونها. ومن هنا يرجح في الظن انهم كانوا بعد استيلائهم على تلك البلاد قد اقتسموها بينهم دفعًا للمشاحّات فكان يملك منهم اكثر من ملكٍ في آنٍ واحد . ولعلّ فيما ورد في الفصل الرابع عشر من سفر الخلائق ما يُستأنس منهُ بصحة هذا الراي فانهُ يذكر هناك عدة ملوك كانوا في ذلك العهد متملكين على البلاد الكلدانية وفي جملة اولئك الملوك كدرلاعومر واريوك وفي الآثار ما يُستبان منهُ ان كليهما كانا من الملوك العيلاميين الذين ملكوا في تلك البلاد . ثم انهُ يتخلّص من آراء اهل البحث ان هذه الطائفة هي التي وضعت الحرف المعروف بالاناري الذي كان عليهِ مصطلح الكلدان قبل الحرف المسماري لان هذا لم يكن معروفًا قبل القرن العاشر قبل الميلاد على ما سنبينهُ بعدُ. وكان اشهر هؤلاء الملوك كدرلاعومر الاّ انهُ لم يُذكَر لهُ على

الآثار من عظائم الاعمال ما ذُكِر لغيرهِ من الملوك ممن لا يضاهيهِ شوكةً واقداماً ولا يدانيهِ في كثرة الغزوات وتوسيع الفتوحات على ما هو مبيَّن في الموضع المشار اليهِ من سفر الخلائق . وملخص ما جاءَ هناك ان خمسةً من ملوك ذلك العهد وهم ملك سدوم وملك عمورة وملك ادمة وملك صبوئيم وملك بالَع كانوا تحت امرة كدرلاعومر ملك عيلام ودانوا لهُ مدّة اثنتي عشرة سنة ثم عصوهُ وامتنعوا من طاعتهِ فزحف كدرلاعومر لقتالهم ومعهُ ثلاثة ملوك آخرين وهم ملك شنعار وملك ألاسار وملك الامم فواقعوهم في غور السدّيم فانهزم ملكا سدوم وعمورة وتشتت من بايهم من اوليائهم وعاد كدرلاعومر واصحابهُ بالغنائم والسبايا . ولكدرلاعومر وقائع غير هذه مع الرفائيين والزوزيين والايميين والحوريين والعمالقة والاموريين غزا اولئك كلهم في بلادهم وظهر عليهم وثمة تفصيل ذلك في موضعهِ . اما الزمن الذي ملك فيهِ كدرلاعومر فلا سبيل الى معرفتهِ على التعيين ولكن لا شك انهُ كان في القرن العشرين قبل الميلاد وهو القرن الذي كان فيهِ ابرهيم الخليل عم لان كدرلاعومر حين كسر ملكي سدوم وعمورة ومن معهما كان في جملة من اسرهُ لوط ابن اخي ابرهيم وكان نازلاً بسدوم فلما بلغ ذلك ابرهيم نهض في ثلاث مئة رجل من حشمهِ واستنقذ لوطاً ومن معهُ من يد كدرلاعومر اه . واما كون ذلك القرن هو القرن العشرين فمقرَّر بشهادة الآثار لان اهل التوقيت في تلك العصور كانوا يؤرّخون من احدى غزوات كدرلاعومر كما ورد على بعض الآثار لاشُور بانيبال ما معناهُ اني استفتحت سوزا ودمَّرتها في القرن الثالث عشر لغزوة كدرلاعومر اه . وكان اشور بانيبال في القرن السابع قبل الميلاد . ولذلك شواهد اخرى لا نطيل باستيفائها

وفي اواخر القرن العشرين اخذت دولة العيلاميين في الانحطاط اثر الوقائع المتواترة بينهم وبين الكلدان وتوالي الاجتياحات عليهم حتى تقلّص ظلُّ سطوتهم ووهت ايديهم عن ضبط ازمَّة المملكة وحينئذٍ استتبَّ المُلك للكلدان فنهضوا باعباءِ الدولة اتمَّ نهوض وجدَّدوا ما طمس لهم من آثار العزَّة والصولة واستقرّت ايامهم اربع مئة وثماني وخمسين سنة وملك منهم تسعة وخمسون ملكاً . فانبسطوا اثناءَ ذلك في البلاد وامتدّت شوكتهم في الآفاق وقهروا كل من ناوأهم من الامم حتى دوَّخوا تلك الاقاليم باسرها ومن ثمَّ اشتهرت دولتهم وغلبت اشعتها على كل دولة كانت قبلها في تلك الانحاءِ فلم يُعرَف الاَّ الدولة الكلدانية

واوّل مَنْ يُعرَف من هذه الدولة إسْمي داجون ومعنى اسمهِ داجون يستجيب وهو اسم الله سيُذكَر . كان إسمي داجون من اشدّ ملوك الكلدان بأساً وامضاهم صريمةً واكثرهم غزواتٍ ووقائع وكانت في يدهِ مقاليد السياسة والدين معاً . وانتشبت بينهُ وبين الاشوريين معارك شديدة كانت العاقبة فيها لهُ فاخضعهم لسطوتهِ وفرّق الاحزاب وقمع كل من عاندهُ حتى دانت لهُ جميع الامصار الاشورية

والكلدانية كما دانت لبختنصّر من بعدهِ . وكان مقامهُ تارةً بأُور عاصمة بابل وتارةً بإيلاّسر عاصمة اشور ومن ابنيتهِ فيها هيكل لأُوانّس كشفتهُ الفرنج من عهد غير بعيد . وفي ايامهِ بلغت رعيتهُ اعظم مبلغ من الثروة والنعيم وتناهى حالها في المعارف والفنون وكثرت عندهُ اسباب القوة والمَنَعة وامتدّت شوكتهُ الى ابعد الاقطار حتى ان مانيثون المصري المؤرّخ يقول في جملة كلام لهُ ما صورتهُ وتخوّف نوبتي ملك مصر من بأْس يفاجئهُ من نواحي الفرات فيدهم ثغرهُ فجدّ في التحصين واتخذ لنفسهِ الأُهبة وشحن الحصون بالرجال . اه . ونوبتي احد ملوك الرعاة وكان معاصرًا لاسي داجون . واما زمن تملكهِ فقد توصّل الباحثون الى معرفتهِ من كتابةٍ وجدوها لتغلث فلأسر الاوّل ذكر فيها عن نفسهِ انهُ جدّد بناءَ هيكل اوانّس المذكور في السنة الاولى بعد السبع مئة من بنائهِ الاوّل وكان تغلث فلاسر في خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد فيكون عهد اسي داجون في خلال القرن التاسع عشر

وتُوفي إسي داجون عن ولدين ملكا من بعدهِ يُسمَّى الواحد كنغُون والآخر شمسي غير انهُ لا يعلم ايهما كان الاسبق في الملك وليس لهما من الآثار ما هو حقيقٌ بالذكر . وممن اشتهر من اعقابهما هُمورابي وهو اوّل من تُروَى اخبارهُ عن يقين اخذًا عن كتاباتهِ على الآثار . وكان معظم همّهِ موجهًا الى تشييد المباني واتخاذ الهياكل والقصور وقد وجد الباحثون من ابنيتهِ آجرًّا ضخمًا يقول على واحدة منهُ ما ترجمتهُ ان ميليتا الزاريّة ربّة الماءَ والارض والهواء والنار والاهة الفلك هي سيّدتي . انا هُمورابي صفيُّ آنو وبعل ابل ووليُّ الشمس الراعي الامين الذي انشرح بهِ صدر مَرُودَخ الجبّار . انا خليل الالاهة ميليتا الملكُ القدير ملك بابل وملك السومير يين والاكّديين المتسلّط على الامم كافةً . ليُكتَب ان الآلهة قد ائتمروا وملّكوني على هذه الامم وقد فعلتُ كل ما احبّت ميليتا التي خوّلتني الملك وسننتُ على الناس عبادتها كما شاءَت وشدتُ لها هيكلاً في زاري المدينة المخصوصة بعبادة آكاني وجعلتُ هذا الهيكل مقدسًا ومعبدًا لكل اقطار المعمورة وهو مِلاك مملكتي . اه . وكان مقام هُمورابي بأُور عاصمة المملكة ثم تحوّل منها الى بابل وفيها كان معظم ابنيتهِ ولهُ في غيرها مبانٍ أُخَر اشتهرت بفخامتها وحسن رونقها وهو الذي حفر ببابل الترعة العظيمة التي كان لهُ بها جليل الفخر وحميد الذكر وقد وُفّق اهل البحث الى وجدان آجرّة من جدران الترعة قد نُقِش فيها انا همورابي القدير ملك البابليين الضابط لازمّة الاقطار الاربعة (يعني بابل وأُرك واكّد وكلنة) القاهر كل مناوئٍ لمرودخ الهي ونصيري . ان الالهين بينًا وبعل ابل قد قلّداني الملك على أُمّتي سومير واكّد وافعما بدي بجزَى هذه الطوائف . وقد كريتُ نهر هُمورابي الذي هو سعادة البابليين وبلغتُ بهِ الى ارض السوميريين والاكديين فامرعت بهِ الفلوات المحلة وكل بقعةٍ لا ماءَ بها افضتُ عليها معينًا عِدًّا واجريتُ للسوميريين والاكّديين مناهل لا تنقطع فجعلتُ لهم في المدائن والدساكر قرارًا خصيبًا وانشأْتُ لهم من البلقع

الغامر مروجًا رائعة وخمائل يانعة وناديتهم اقيموا في الرَغَد والخصب فهذه ارضكم ارض رَبْعٍ وهناءة. انا حمورابي الملك الهمام خليل الاله الاكبر اني وفاقًا لما اوعز بهِ اليَّ مرودخ الاله القدير قد شيَّدتُ عند مُنفجَر نهر حمورابي أُطمًا شامخ الراس وشحنته بالبروج العظيمة التي هي امثال الجبال الشواهق وسمَّيتُ هذا الأُطُم دور امُوبانير (اي أُطُم امُوبانير) باسم الاب الذي نزلتُ من صلبهِ وجعلتُ هذه الامصار مباءةً لي تخليدًا لذكر اموبانير ابي اه

ولما انقضى عهد حمورابي تداول سريرهُ ملوكٌ كثيرون قد اشتبهت اسماؤهم وتداخلت انباؤهم فتعذر تخليص بعضها من بعض ولذلك اضربنا عن تتبُّع اخبارهم لقلة جدواها وعدم مصيرها الى حقيقةٍ قاطعة . وفي عهد اولئك الملوك اخذت دولة الكلدان في الانحطاط والانحلال وزحفت عليهم الجيوش المصرية فكانت بين الفريقين وقائع متواترة نحو قرنٍ من الدهر وذلك من سنة ١٦٦٥ قبل الميلاد الى سنة ١٥٥٩ . وكان المصريون في هذه البرهة كلها منبثّين في مملكة الكلدان لا تخلو من شراذم منهم يسطون في البلاد ويعيثون في اهلها الى ان وفد توثمس الاول احد مشاهير ملوك مصر الى كركميش في السنة المذكورة وعبر الفرات برجالهِ وزحف على بابل فنازلها والقى الحصار على بروجها فاستفتحها عنوةً ودخلت البلاد في طاعتهِ ولبثت تؤدّي الجزية . ولما توفي توثمس تمرّد الكلدان على ملوك مصر ونبذوا طاعتهم حتى كان عهد توثمس الثالث فجدَّد عليهم الغارة وزحف بجنودهِ حتى اتى بابل فحاصرها واخذها واثخن في اهلها وانصرف عنها ظافرًا . وعند انصرافهِ ولّى عليها من يثق بهِ من اهلها بعد ان اخذ عليهِ العهود والمواثيق فما زال الامر فيها للفراعنة من بعدهِ يولّون عليها من شاءوا الى سنة ١٢١٤ قبل الميلاد فكانت مدة ولايتهم على بابل وما يليها مئتين وخمسًا واربعين سنةً . وكانوا في هذه الاحقاب كلها يأتون باولاد الولاة الذين يولّونهم بابل الى مصر فيلقّنونهم عقائدهم من الدين ويؤدّبونهم بآدابهم وعاداتهم حتى اذا توفي احد آبائهم انفذوا من انجبهم منهم فعقدوا له مكان سالفهِ كما هو مقرر في الآثار المصرية . وكان اذا تمرد احد هولاء الولاة وابى حمل الجزية الى مصر خلعهُ الفراعنة عن خطتهِ وقلّدوا الامر من هو اهلٌ له . فاصبح ملوك بابل من خلفاء حمورابي واسمي داجون لا يملكون الاّ على اعمال بابل فقط وصاروا في منزلة ملوك نينوى وسنجار وابلأسر . وكان عدد من ملك من البابليين تحت إمرة الفراعنة تسعة ملوك ذكر بيروسوس انهم من اصلٍ عربيّ غير انهُ لا يُعلَم هل كانوا من نفس العرب سكان الجزيرة ام من اهل سورية والكنعانيين لان اسم العرب كان يُطلَق قديمًا على كل من كان عربيّ المنطق وكانت العربية اذ ذاك شائعةً في اقطار آسية الغربية كلها. والذي في راي اكثر المحققين انهم كانوا من العرب السُوريين بدليل عبادتهم لسُوتَخ وهو من الآلهة التي لم تُعرَف الاّ عند السوريين

ويُذكَر في جملة من وَلِيَ بابل من ملوك العرب ثلاثة ملوك احدهم يقال لهُ بورنبورياس والثاني كراهرداس والثالث نزيبوكاس وهم الذين اضرموا نيران الحرب بين بابل واشور فلم ينطفئ سعيرها حتى اخضعهم تغلث سمدان سنة ١٢١٤ واستخلص المملكة من ايدي الفراعنة على ما سبق الالماع اليهِ فانثلّت عروشهم وتبددوا في الارض . واستعمل سمدان على بابل رجلاً من اصحابهِ واستمرّت بابل تحت امرة الاشوريين يتعاقب عليها الواحد بعد الآخر الى منتصف القرن الثاني عشر فنهض واحدٌ من الكلدان يقال لهُ بين بلأدان وحشد جموعاً كثيرة وزحف على اشور فواقعها وظهر عليها ورجع عنها ظافراً غانماً فاعتزّ شانهُ وارتفعت كلمتهُ ونفذ سلطانهُ في الاقاليم الكلدانية كلها . ولما تمهّد لهُ امر المُلك اقبل على تحصين بابل وعزّزها بالاسلحة والرجال وبنى على مدينة نيبورسوراً سماهُ نيويت مرودَخ. وفي تلك الغضون توفي ملك اشور الذي كانت الواقعة بين بلأدان وبينهُ فقام بالامر بعدهُ آدار بلأسَر فجيّش جيوشهُ وخرج لقتال بلأدان فاستعرت بينهما الحرب واتفق في تضاعيف ذلك ان توفي بلأدان وتوفي آدار بلأسر ايضاً دون ان يتوجه الفوز لاحدهما فخلف بلأدان نبوخذرصّر وقام مكان آدار بلأسَر اشور زيسي وقامت معهما الشرور والفتن وما زال دابهما ذلك حتى هلكا كلاهما في حديثٍ قد ذهبت عنا تفاصيلهُ فاقتصرنا منهُ على ما اوردناهُ

ولما كانت سنة المئة والالف قبل الميلاد وفد مرودخ دنياكي الكلداني على اشور بجموعهِ واقام الحصار على هيكالي فدمّرها عن آخرها وكان على اشور اذ ذاك تغلث فلأسَر وكان ملكاً عالي الهمة شجاعاً فاتكاً فألّب جيشهُ وبرز لقتال دنياكي فالتحمت الحرب بين الفريقين زماناً حتى كانت الغلبة لاشور فولى جيش الكلدان ادبارهم بعد ان قُتِل منهم خلقٌ كثير وكانت آخرَ نوبةٍ زحفوا فيها على اشور الى ان نهض بعليزيس الكلداني وتحالف مع ارباش الماديّ وجيّش على نينوى فاخذها عنوةً وتركها قاعاً صفصفاً وذلك سنة ٧٨٨ قبل الميلاد وقد اسلفنا طرفاً من هذه الواقعة في القسم الاول من الكتاب وسنعود الى تفصيلها ان شاء الله تعالى

ذكر الدولة الاشوريّة الاولى

اما تاريخ الدولة الاشورية فلم تزل اوائلهُ غائبةً تحت ظلمات الابهام لا يكاد يُوقَف منها على حقيقةٍ يوثق بها ولا سيما ما كان منها بعيد العهد في ازمان نشأتها وقد تباينت اقوال المؤرخين في مؤسّس هذه الدولة ومشيد اركانها الاول فمنهم من قال ان نمرود هو اول من اسس مدينة بابل ثم خرج الى نينوى فبناها وقد سبق لنا كلامٌ في هذا المبحث عند ذكر مدينة نينوى يغني عن التكرار

هنا . وذهب غيرهم الى ان باني نينوى هو نينوس بدليل تسميتها وظاهرهُ غير بعيدٍ من الصحة لولا معارضة النصوص لهُ كما ورد في سفر الخليقة من ان بانيها اشور بن سام على ما اسلفناهُ هناك . واكثر ارباب البحث في هذا العصر على ان بانيها مجهول او انهُ لا يتعيَّن لها بانٍ بعينهِ وانما هم جماعةٌ من اهل تلك الارض ضربوا فيها مساكنهم ثم اخذوا يشيدون فيها المباني شيئًا بعد شيء وتوطنوها وجعلت العمارة تتزايد فيها كلما تكاثر اهلها واتسعت ارزاقها شان غيرها من سائر الامصار . قلت والاظهر ان اولئك القوم كانوا شرذمةً من الكلدان نبت بهم اوطانهم فخرجوا الى تلك الارض ولما استقرُّوا في موضعٍ منها ولَّوا امرهم رجلًا منهم لقَّبوهُ باشُّور وهي كلمةٌ بمنزلة القَيل عند العرب ثم اخذوا في بناء هذه المدينة وأَووا اليها وتداولوا ملكها وكان من امرها ما نحن فيهِ . يشهد لذلك انَّا نرى اكثر الاشياء التي تواطأ عليها الاشوريون من نحو العقائد والعوائد واللغة واشكال الابنية وغير ذلك هي نفس ما عند الكلدان ولا نرى كذلك بقية الامم المجاورة فانها ان لم تكن ذات اصلٍ واحد لم تكد تتوافق الَّا في الشيء القليل مما لا يقضي بينها بهذا الحكم . وفي هذا الراي موافقة لمقال مؤرّخي الكنيسة من ان اشور وقومهُ لبثوا زمانًا مخالطين للبابليين في ارض الكلدان ثم فارقوهم لظلمٍ احسُّوا بهِ او استقلالٍ سموا اليهِ فصحَّ ان اصل الاشوريين كلدانيٌّ استدلالًا ونقلًا والله اعلم بالصواب

ثم ان نص الكتاب لا يورد من هذا القبيل الَّا لُمعةً خفيفة وبقي تاريخ اعقاب اشور وما آل اليهِ امرهم في تقلُّب ملكهم كل ذلك مجهولًا الى هذا العهد . وقُصارَى ما يُعلَم من شانهم انهم افضى بهم حوَل الدهر الى الوقوع في قبضة ملوك الكلدان الَّا ان هذا النبأ عارٍ عن التفاصيل غُفلٌ من بيان عِلَل سقوطهم وتاريخ انحلال ملكهم وتوقيت الزمان الذي لبثوا فيهِ تحت امرة الكلدان الى حين خروجهم من ربقتهم . وقد يُستخلَص مما ذكرهُ الكتاب من ان الله جل وعلا لما اراد عقاب بني اسرائيل على معصيتهم اسلمهم الى كوشان رشعتائيم ملك ارام النهرين ان الاشوريين كانوا في ذلك العهد تحت ربقة الكلدان لانهم لو كانوا مستقلّين في ملكهم لاسلم بني اسرائيل اليهم لينفذوا فيهم نقمتهُ كما كان من شانهِ تعالى ان يسلطهم عليهم كلما اراد نكالهم على ما سنبينهُ في الكلام على اسرحدون وشلمنأسَر وبختنصَّر وغيرهم . ومهما يكن من ذلك فالذي يُفهَم من روايات المؤرخين ان الاشوريين مضى عليهم القرن الثامن عشر والسابع عشر والسادس عشر قبل المسيح وهم في قبضة الكلدان يذوقون من انواع الذل واصناف الجور ما لا طاقة لهم بهِ حتى ضاقت صدورهم وعيل اصطبارهم فاخذوا يجهدون في التملص من ايديهم حتى اذا كادوا يظفرون بالنجاة انقضَّت عليهم جيوش مصر فاذاقتهم البلاءَ وسامتهم الخسف والرقّ وما زالوا في مثل تلك الحال من ضغط المصريين عليهم وغزوات البابليين لهم ممن كانوا يلون تحت امرة الفراعنة على ما سبق الايماء اليهِ حتى انتهى القرن

الخامس عشر ثم تلاهُ القرن الرابع عشر فنهض في اوائلهِ رجلٌ منهم من اهل الشدَّة والنجدة يقال لهُ نينيب فلأسر وهو تغلث سمدان المقدم ذكرهُ قبيل هذا فصاح في قومهِ الاشوريين وجرَّد منهم خلقًا لا يحصى وزحف بهم على بابل فنازلها وحاصرها حصارًا شديدًا الى ان افتتحها عنوةً سنة ١٢١٤ واباد اهلها قتلاً واسرًا

ونينيب فلأسر هذا هو الذي يسمّيهِ الفرس بنينوس ويجعلون سميراميس زوجتهُ في حديثٍ طويل نلخصهُ هنا عما رواهُ اكتزياس طبيب ارتكزرسيس ملك فارس عن السجلّات التي كانت في بلاط الفرس بفرسبوليس على ما سلف بيانهُ في اوائل الكتاب وعن اكتزياس هذا اخذ اكثر المؤرخين. ومن تاريخهِ فيما نحن فيهِ ما رواهُ ديودوروس الصقلي من كلامٍ يقول فيهِ ما معناهُ ولما انحطّت احوال البابليين اثر المواثبات التي وقعت ببابل ايام دخلتها العرب نهض نينوس الاشوري لانقاذ قومهِ من ربقة الذل فشرع في حشد الجنود وجمع الاقوات واتخاذ العُدَد وزحف بجيشهِ الى بابل فامتلكها بعد حصار عنيف واثخن في اهلها وقتل ملكها وحبس امرأتهُ وبنيهِ وبناتهِ وسائر من ينتمي اليهِ . ثم انصرف عنها فعطف على ارمينية وفي عزمهِ ان يُنزِل بها ما انزلهُ ببابل فازدلف اليهِ ملكها بما عندهُ من اصناف الكنوز والذخائر الكريمة فتقبلها نينوس من يدهِ وانصرف عنهُ راضيًا. ثم مضى بجنودهِ الى مادي وكان عليها يومئذٍ ملكٌ جبارٌ من ارباب الصولة والبأس فأَنِفَ من التسليم الى نينوس والانقياد لطاعتهِ فواقعهُ نينوس وقهرهُ ثم قبض عليهِ وصلبهُ . وبقي نينوس على مثل تلك الحال نحوًا من سبع عشرة سنة يغزو في البلاد ويفتح الحصون والمعاقل ويدمّر الاسوار والمدن حتى استولى على جميع البلاد الواقعة ما بين البحر المتوسط وبحر الخزر ونهر الهند وخليج فارس. قال ولما قفل نينوس الى بلادهِ بالغنائم والسبايا همَّ بابتناء مدينةٍ يجعلها مباءَةً لهُ ولاعقابهِ لا يقع في الامكان ان يكون لها مثيلٌ على تراخي العصور وتوالي الاحقاب فاقام فيها الابنية ورفع عليها سورًا منيعًا شيَّد عليهِ بروجًا باسقة الارتفاع ونادى بالناس الى سكنى المدينة فاجتمع اليها الوفٌ من الرجال والنساء من اشراف الناس وصعاليكهم وتواردت اليها اسباب الثروة والعمران فما لبثت الَّا زمنًا يسيرًا حتى صارت لا تدانيها مدينةٌ في الارض . قال وبعد ان تمَّ بناء السور همَّ نينوس للمسير فجنَّد جنودهُ وارتحل بهم الى بقتريا عاصمة بقتريانا وكان قد قصد هذه المدينة من قبل واضرم عليها لظى الحرب زمنًا ثم تراجع عنها عن عجز وخسران. فلما عاد اليها في الكرة الثانية لبث تحت اسوارها امدًا طويلاً حتى ضعف رجاؤُهُ في النصر وتخوّف ان يفرغ من عندهِ الزاد فتكون في ذلك هلكتهُ وفناء جيشهِ . فحدث في تلك الايام ان الاله الكبير انفذ الى نينوس امراة قائد من قوادهِ اسمها سميراميس فاشارت عليهِ بحيلةٍ يتمكن بها من الاستيلاء على المدينة ففعل

فانفتحت له ابواب البلد ودخلها ووضع السيف في اهلها فتعزّز سلطانهُ وقويت شوكتهُ في سائر الاقطار . ومذ ذلك الحين هام نينوس في حب سميراميس وكلف بها كلفًا لا مزيد عليهِ وعلم بذلك بعلها القائد ورأى انهُ لا يقوى على مقاومة الملك ولا يصبر عن امرأتهِ فخنق نفسهُ ومات شر ميتةٍ . فوقع موتهُ عند نينوس اشهى موقع ولم يلبث ان امر فعُقِد لهُ على سميراميس وتزوّجها . انتهى بتصرُّف

وممن اشتهر من ملوك اشور تغلث فلأسر المقدّم ذكرهُ قُبَيل هذا وَلِيَ الملك في اواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد وهو السابع من اعقاب نينيب فلأسر ولهُ على الآثار ما يشهد بانهُ كان من جلّة ملوك اشور الموصوفين بالاقدام وكثرة الغارات ووفرة العمارات ومن عهدٍ غير بعيد وُجِد لهُ اثر في الخربة كالح شرعات قد سُطِّر عليهِ تاريخ فتوحهِ فيما ينيف على سبع مئة سطر ذُكِر في جملتها انهُ بلغ في غاراتهِ بحر الخزر الذي يسمّيهِ البحر الاعلى ودوّخ ما هنالك من البلاد وانهُ اخترق جبل لبنان ولم يكن اخترقهُ ملكٌ اشوريٌّ قبلهُ وركب البحر المتوسط الى جزيرة رواد وزحف بجيشهِ على ممالك كثيرة فقهرها ورجع عنها ظافرًا وطأطأت لهُ ملوك طانيس كنف الطاعة والخضوع فاطرفهُ فرعون مصر بتمساح من تماسيح النيل تودّدًا اليهِ وتزلفًا من رضاهُ . وفي عهدهِ نهض مرودخ دنيا كي الكلداني على هيكالي واخذها عنوةً على ما قدّمناهُ فثار تغلث فلأسر بجيش كثيف وأمّ بابل فخرج اليهِ مرودخ واقتتل الفريقان في قاعٍ من الارض بظاهر بابل وكانت العاقبة للاشوريين فاثخنوا في البابليين ومزّقوا شملهم كل ممزّق ودخلت المدينة في حوزتهم

وبعد وفاة تغلث فلأسر انتشبت الفتن بين الاشوريين وتفرقت كلمتهم فلانت شوكتهم وضعفت صولتهم وفي تضاعيف ذلك زحف عليهم قومٌ من الكيتاسيين فناصبوهم حربًا شديدة فلم يستطيعوا الثبات امامهم واستولى الكيتاسيون على كثير من البلاد وضربوا عليهم الذلّة . وبعد ما شآء الله من الزمن نهض رجلٌ من اعيان الدولة الاشورية يقال لهُ بعل كيتراسو واليونان يسمونهُ ببعليتراس وقد رأى ما حلَّ بالدولة من انحلال عُراها واختلال امرها فعمل على خلع الملك وهو يومئذٍ اشوربمار وغلبهُ على المُلك ونقل السرير من اشور الى مدينة نمرود . وكان بعليتراس هذا من الامرآء آل المُلك كما يستفاد من كتابةٍ لبعلوخوس الثالث الاشوري خلافًا لما يزعمهُ مؤرّخو اليونان من انهُ كان اجنبيًّا عن المُلك . ولما انقضت ايامهُ قام باعبآء الدولة بعدهُ شلمنأسر الثاني ثم إربين وتعاقب بعدهُ ملوكٌ آخرون حتى افضى الامر الى بعلوخوس الثاني وكانت مدّة ملكهِ من سنة ٩٥٦ الى سنة ٩٢٦ وهو الذي كانت الواقعة بينهُ وبين ملك مادي فاخضعهُ لدولتهِ واقام الماديون يؤدُّون الجزية . ولنا من عهد هذا الملك الى انقضآء الدولة الاشورية سلسلة متواصلة لجميع الملوك الذين ركبوا سرير

اشور من غير نقص ولا خلل . وتولى الملك بعدهُ ابنهُ تغلث سمدان الثاني وكان رجلاً جبارًا مولعًا بالفتوح والغزوات دون تشييد الابنية لانهُ لم يُعثَر لهُ على بناءٍ باسمهِ الَّا ان تكون قد ذهبت بهِ الايام ومحاهُ توالي الخراب فلم يبقَ الى كشفهِ سبيل . وقد وجد ارباب التنقيب آجرَّةً من آثارهِ قد نُقِش عليها ما معناهُ . انا تغلث فلأسر الملك القدير المستولي على الامم كافةً انا السيّد العظيم الذي ليس سيّدٌ في المعمورة الَّا وانا سيّدهُ . لقد ملكت بسيفي الاقطار الاربعة وغزوت بجيشي صغير الممالك وكبيرها وكل عدوٍ لربّي قمعتهُ وارغمت انفهُ . وذكر بعد ذلك اخضاعهُ المملكة كوماغنيا ثم المملكة الواقعة عند مُنفجَرِ دجلة (ولا شك انهُ يريد ارمينية) ثم استيلاءهُ على القسم الاعلى مما بين النهرين واجلاءهُ لطوائف تلك الآفاق ثم وصف خروجهُ الى مصر وظهورهُ عليها وتملكهُ لها وقهرهُ من انتصر لها من ملوك الاقاليم المجاورة الى ان قال فبلغ جملة ما ملكتهُ اثنتين واربعين مملكةً وولاية تمتد من اقاصي المشرق الى اطراف المغرب وحملت من حيوانها ونباتها وغرائب موجوداتها فضلاً عمن اجليتهُ من كل مملكةٍ اخضعتها وجئت بذلك كلهِ فجعلتهُ في مملكتي الزاهرة . انتهى . وكانت مدتهُ من سنة ٩٣٥ الى سنة ٩٣٠

وبعد تغلث فلأسر تولى زمام الدولة ابنهُ اشور نزربال الثالث واستقرَّ على سرير الملك من سنة ٩٣٠ الى سنة ٩٠٥ وكان تملكهُ في اليوم الثاني عشر من شهر تموز على ما حقّقهُ اهل الهيئة في هذا الزمان لانهم وجدوا على الآثار ما مفادهُ ان هذا الملك ولي السلطان في اليوم الذي كسفت فيهِ الشمس كسوفًا تامًا وكان ذلك بمُوجَب حسابهم في اليوم المذكور . وكان مولعًا بتشييد المباني واقامة الهياكل والقصور وقد وُجِد لهُ ما لا يحصى من الآثار الموسومة باسمهِ من ابنية وتماثيل آلهة واوانٍ مختلفة من الذهب والفضة والعاج وغير ذلك . ومن ابنيتهِ القصر العظيم بنمرود الذي كشفهُ السير لايرد الانكليزي وقد بقيت منهُ بقايا تدل على انهُ كان من الفخامة والاحكام بمكان . ولهُ بنمرود ايضًا الهَرَم الباذخ الذي شيدهُ لرصد الكواكب . وعلى مسافةٍ منها هرمٌ آخر كان هيكلاً لآدار بناهُ واقام فيهِ تمثالاً لهُ قد نقش عليهِ ما ترجمتهُ . انا اشور نزربال الظافر المنيع ربُّ القصر الاشوري ابن تغلث سمدان ليث القراع ومخراق الحروب المالك على الاربعة الاقطار ابن بعلوخوس الملك المظفَّر المتسلط على الطوائف الاشورية . لقد ملكتُ بسيفي جميع الاقاليم الممتدة من لَدُن مُنفجَر دجلة الى اطراف جبل لبنان . اه

وكان اشور نزربال ظلومًا جافيًا سفّاكًا للدماء لا تاخذهُ في احدٍ رحمةٌ ولا تعطفهُ عاطفة وكان اذا اسر قومًا نكَّل بهم تنكيلاً فظيعًا فيصلم آذانهم ويجدع انوفهم ويقطع ايديهم وارجلهم الى ما شاكل ذلك فضلاً عمّا يركبهُ من الفواحش في السبايا والاطفال ثم يجمع تلك الاعضاء فينضد بعضها

فوق بعض حتى تصير بناءً قائمًا في السماء ويتلذذ بالنظر اليها. قلت وهذا اشبه بما يُروَى عن نيرون الروماني وقت ايقاعهِ باهل الدعوة النصرانية من انهُ كان يصلب الجماعة منهم في رَبَض المدينة ثم يطلي ابدانهم بالقار والنِفط فاذا خيَّم الليل امر باحراقهم ثم خرج على عجلتهِ ومعهُ وزراء دولتهِ وكبراء بلاطهِ يتفرجون على ذلك المشهد الكريه . ومع ما في هذا الصنيع من شدة القسوة التي تدلُّ على نهاية الخشونة والبربرية فلا يُنكَر على الاشوريين انهم كانوا في ذلك العهد قد بلغوا قمة التمدن والحضارة في فنونهم وصنائعهم ولهم في اواخر ازمانهم ما هو اشنع وافظع مما ذُكِر فقد روى عنهم هيرودوطس اليوناني وكان قد قدم بابل في اواسط القرن الخامس قبل الميلاد انهُ لما حدثت الفتنة في بابل قُبَيل ذلك العهد بقليل ووفد عليها داريوس هستاسب وحاصرها سئم اهلها من طول الحصار وفرغت اهبتهم فذبحوا عددًا كثيرًا من نسائهم بحيث لم يتركوا الاَّ امرأةً لكل واحدٍ منهم . ثم لم يلبثوا الاَّ قليلاً حتى استفتح داريوس المدينة فلما دخلها وعلم بما صنعوا حنق عليهم حنقًا شديدًا فاطلق يدهُ فيهم بالعذاب والتمثيل وصلب منهم ثلاثة آلاف رجل . انتهى

ولما توفي اشور نزربال خلفهُ على المُلك ابنهُ شلمنأسر الثالث وكان ملكهُ من سنة ٩٠٥ الى سنة ٨٧٠ . وعلى عهدهِ عظم شان اشور واتسع نطاقها واُطلق عليها في الكتاب اسم مملكة . ومن شهير اعمالهِ التي ذُكِرَت في التاريخ واقرَّتها الآثار ما ورد لهُ منقوشًا على احدها حيث يقول ما ترجمتهُ . في السنة التاسعة لملكي عبرت نهر الفرات وهي ثامن مرةٍ عبرتهُ فيها ودمَّرت مدينتَي سنجار وكركميش وصيَّرتها ماكلاً للنار . ثم خرجت لمواقعة ابن حِدْري الشامي وحَزْلينا الحموي واثني عشر ملكًا من ملوك الساحل (يعني فينيقية) فقهرتهم واستحوذت على كنوزهم وعجلاتهم وعُدَدهم وخيولهم . وفي السنة العاشرة خرجت بمئةٍ وعشرين الفًا من الجند الى حماة فاخذتها واستوليت معها على تسع وثمانين مدينة . وفي السنة التاسعة عشرة خرجت على حزائيل خليفة ابن حِدْري فغنمت منهُ الفًا ومئةً واحدى وعشرين عجلة واسرت اربع مئة وسبعين فارسًا بعُدَدهم . وفي السنة الموفية للعشرين سرت الى جبال امانوس وقطعت من ارز لبنان جسورًا حملتها الى اشور . وفي السنة الثانية والعشرين سِيقَت اليَّ الجزية من صور وصيداء وجُبَيل وبعدها وفدت عليَّ الهدايا من ياهو ملك اسرائيل . ولهُ اعمالٌ غير هذه سطَّرها على السارية التي نصبها بنمرود اضربنا عنها لضيق المقام

وبعد شلمنأسر افضى المُلك الى ابنهِ شمسيهو الثالث المعروف بصامَس بين وكان لهُ اخٌ قد استحوذ على بعض الممالك التي افتتحها ابوهُ فتشاحَّا عليها واستطارت بينهما الفتنة نحوًا من خمس سنين ونشأت عن ذلك مشاغب شتى في بابل ونينوى وكثر الهرج حتى اصبحت عترة المُلك في خطرانٍ تسقط راسًا وفي آخر الامر استقرَّ الفوز لشمسيهو فاستخلص تلك الممالك من اخيهِ وخلا بامر المُلك .

وقد عُثِر لهُ على اثر يقول فيهِ انهُ خرج على بابل لقتال مرودخ بَلَتاريب وكان مرودخ تحت إمرة الاشوريين فلما ثارت الفتنة بين شمسيهو واخيهِ اغتنم تلك النُهزة لشقّ عصا الطاعة وجاهر بالعصيان فواقعهُ وظفر بهِ وقتل زعماء الاحزاب وغنم منهُ مئتي عَجَلة واجلى من رعيتهِ سبعة آلاف نفس . اه

وتولى الملك بعدهُ ابنهُ بعلوخوس الثالث وعلى عهدهِ استؤنفت الفتنة في بابل وتمادى القوم في المنابذة والخلاف حتى عجز عن ردّهم الى طاعتهِ فارتأى انهُ اذا تزوج واحدةً من بنات ملوك بابل كان في ذلك وسيلةٌ الى بلوغ ماربهِ وأَمِنَ سورة الشقاق . فوقع اختيارهُ على سميراميس التي يروي عنها بعض متقدمي المؤرّخين افعالاً يضيق عنها نطاق التصديق . ومما وُجِد من آثارهِ آجرّةٌ قد نُقِش عليها انا بعلوخوس قد ضربت الاتاوة على جميع المدن والاقاليم والممالك الواقعة ما بين سورية وفينيقية وحدود صور وصيدون والسامرة وايذومة وفَلِسْط . اه . وهي اول مرةٍ ذُكِرَت فيها فلسط اي فلسطين على آثار اشور . وفي لندرة اليوم تمثال ضخم للاله نبو كان نصبهُ وزير بعلوخوس وكتب عليهِ ايها الاله نبو المعظم عصمة مولاي وعَضُدهُ كُن مؤازرًا لهُ بحولك وقدرتك واحفظ سيدتي الملكة سميراميس زوجتهُ . اه

وسميراميس هذه هي التي ذكرها هيرودوطس وقال انها كانت مالكةً قبل نيتوكريس بمئة وستين سنةً وجاء المؤرخون بعدهُ فخطأوهُ ورووا عنها اقاصيص واخبارًا لا يحتمل غرضنا الاطناب بذكرها غير انّا نورد بعضًا من تلك الحكايات تفكيهًا للمطالع . فمن ذلك ما حكاهُ بعلوطرخوس في جملة كلام اورد فيهِ ذكر سميراميس قال وتوسّلت هذه الملكة الى بعلها نينوس ان يفوّض اليها ازمّة الاحكام خمسة ايام تستبدّ فيها دونهُ ففعل وانفذ بالاوامر المؤكّدة الى جميع العمّال وارباب المجالس والاحكام ان يولُوها جانب الاذعان ولا يخالفوها في شيء مما تامرهم بهِ . فلما خلَت بالملك كان اول ما امرت بهِ طرح نينوس في السجن وخلعتهُ عن السرير راسًا فبقي في محبسهِ يعاني الذلّ والقهر حتى ادركتهُ الوفاة . وقال ديودوروس ومن اخذ إخذهُ من الكتّاب كانت سميراميس من طائفةٍ خاملة الذكر من رعاع عسقلان فلما وصلت الى المُلك افرغت طوقها فيما يُذيَّل بهِ ذكرها الدنيء من الاعمال العظيمة والفتوح الجسيمة فحشدت اليها البنّائين والصُنّاع من انماطٍ شتى وامرت باقامة السورين العظيمين اللذين يحيطان ببابل فبلغا سبعين كيلومترًا طولاً ورفعت فوقها بروجًا منيعة وخطّطت ازقّة المدينة وقسمتها الى ست مئة وخمسة وعشرين حواء وشيدت هيكل بعلوس والقصر الملكي والحدائق المعلّقة مما سلف ذكرهُ في القسم الاول من هذا الكتاب . قالوا وان سميراميس لم تقنع بالمُلك الذي تقلّدتهُ عن بعلها فنادت في قومها وحشدت من الجيش ما بلغت عدتهُ الف الف جندي وزحفت بهم الى ارمينية وهي في طليعتهم وكان على ارمينيا ملك يقال لهُ قارا فظهرت عليهِ وقهرتهُ

وولّت مكانهُ رجلاً من اصحابها . ثم سارت الى فلسطين فاخضعتها واستولت عليها وتقدمت من هناك الى مصر فامتلكتها ثم عطفت على الحبشة ففعلت بها كذلك ولم يمضِ عليها الاّ زمنٌ يسير حتى دانت لها جميع الاقطار التي بين الصين والحبشة . ثم وجَّهت الغارة الى الجنوب فارتحلت بعسكرها الى بلاد الهند وتقدَّمت الى رجالها ان يذبحوا الوفًا من الثيران الدُهس ويسلخوا جلودها ويقطعوها على هيئة الفِيَلة حتى تكسو بها ابعرتها وخيولها وتقدّمها امام الجيش ايهامًا للعدوّ. وبلغ ملك الهند خبر مقدمها فتجهز لقتالها وألّب جيشًا كثيفًا ووجَّه شرذمةً من الجيش اوعز اليهم ان يبرزوا لها ثم ينهزموا امامها حتى تدخل اواسط البلاد . فلما التقى الجمعان والتحمت الحرب ولّت الهنود على اعقابها وتبعتهم سميراميس برجالها حتى اوغلت في ارضهم وكانوا قد كمنوا لها في موضعٍ من البلاد حتى اذا بلغت موضع الكمين ثاروا في وجهها واطبق جيشهم من كل جانب فاهلكوا من قومها خلقًا لا يحصى وانهزمت سميراميس شر هزيمة وقد اصابها جرحٌ بالغ كادوا يمسكونها به لولا خفّة فرسها وسرعتها في المفرّ وانثنت قافلةً الى بابل بالفشل والخسران . اه

وخلف بعلوخوس الثالث وسميراميس اشور ليخوس المعروف بسردنابال او سردنافول وفي ايامهِ تفاقم امر الفتنة في بابل ووهت سطوة الاشوريين وتضعضعت دعائم دولتهم لما كان في سردنابال من الغفلة وضعف النفس ووهن العزيمة لانهُ افنى زمانهُ في حشد الاموال ومعاقرة اللذات والاقبال على اللهو والخلاعة وكان لا يفارق دار حرمهِ ولا يهمّهُ الاّ مغازلة نسآئهِ حتى قيل انهُ كان يتزيّا بملابسهنَّ ويعمل اعمالهنَّ من الغزل ونحوهِ الى غير ذلك. ولما كان اهل بابل قد سئموا من تسلُّط الاشوريين عليهم وهم غير غافلين عن انتهاز فرصةٍ للتخلص من ايديهم نهض بعليزيس الكلداني وحالف ارباش ملك مادي على اشور كما قدَّمنا تفصيلهُ في القسم الاول وكان من عاقبة هذه الحرب خراب نينوى عن آخرها واحراق الملك نفسهُ وآلهُ في النار على ما مرَّ هناك واضمحلّت بذلك الدولة الاشورية الاولى

ذكر الدولة الاشوريَّة الثانية

ولما تمَّ هذا الفتح لبعليزيس واطمأنت لهُ البلاد جعل مقامهُ باشور وبقيت في حوزتهِ الى ان توفي سنة ٧٤٧ . وبعليزيس هذا هو المعروف بفول وهو على ما في الآثار الاشورية من سلالة ملوك اشور الاولين وليس لنا من اخبارهِ الاّ ما ورد عنهُ في رابع اسفار الملوك حيث ذُكِر ان منحيم ملك اسرائيل لما قتل شلوم بن يابيش الذي كان مالكًا قبلهُ وتسلّق عرش المُلك ارسل الى فول ملك اشور يستصرخهُ

ويستعين بهِ على اقرار الملك في يدهِ وجهَّز لهُ الف قنطار من الفضة ضربها على قومهِ فلبَّاهُ فول واسعفهُ بما اراد وبعد ان استنضَّ منهُ المال قفل راجعًا الى ارضهِ وكان ذلك سنة ٧٧١ . وفي سفر يونان ان الله جلَّ جلالهُ ارسل نبيهُ يونان عم الى نينوى ينذرهم خراب المدينة ان لم يتوبوا اليهِ تعالى فلما اتصل خبرهُ بالملك نزل عن اريكتهِ وجلس على الرماد وهو قد تردَّى بالمسح وامر مناديهُ ان ينادي في المدينة بصومٍ عام على الناس والبهائم جميعًا لا تذوق نفسٌ منها مطعمًا ولا مشربًا وان يلبسوا المسوح كذلك ويبتهلوا بالدعاء الى الله ويأخذوا باسباب الصلاح والتوبة فلما فعلوا ذلك عفا الله عنهم وكفَّ عن المدينة

وبعد وفاة فول انتقض الاشوريون على اهل بابل ونبذوا الطاعة لهم ووقعت بين الفريقين مجاولاتٌ شتَّى وكان في طليعة الاشوريين واحدٌ من ابناء ملوكهم يُعرَف بتغلث فلأَسر الرابع ودامت الحرب بينهم نحوًا من اربع سنين حتى كان الظفر للاشوريين وذلك سنة ٧٤٣ . وكان تغلث فلأَسر هذا رجلًا جبَّارًا فاتكًا مقدامًا وقد أُوتي من النصرة والتوفيق شيئًا عزيزًا حتى طار ذكرهُ في الاقطار وظلَّلت مهابتهُ على الامصار وكان يلقّب نفسهُ بنينوس الثاني . وكان لما استقرَّ في يدهِ امر اشور واستوسق لهُ الملك انهُ صرف اهتمامهُ الى النظر في احوال الدولة وجمع ما تفرَّق من امرها ونظر الى الممالك التي استفتحها الاشوريون من قبلهِ فاذا بالكثير منها في قبضة البابليين فعقد عزمهُ على استرجاعها ولم يلبث ان زحف من تلك السنة الى اسروينا وشمالي الاقطار الشامية فاخضعها لسطوتهِ وفي السنة التالية سار الى ارمينية فنكبها واستولى عليها واجلى عدَّةً كثيرة من اهلها الى اشور . واتفق في تضاعيف ذلك ان هاجت حربٌ بين فاقح ملك اسرائيل ورصين ملك دمشق وبين آحاز ملك يهوذا حتى تضايق آحاز جدًّا فبعث الى فلأَسر المذكور يستعديهِ وانفذ اليهِ بما كان في الهيكل الكبير وقصر الملك من الذهب والفضة وكان شيئًا كثيرًا فجرَّد فلأَسر جيوشهُ ونزل على دمشق فافتتحها وقتل رصين ملكها ثم عطف على فلسطين فقهر فاقح ملك اسرائيل واستولى من مدائنهِ على عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد وكل ارض نفتالي وساق سكانها الى اشور . وبعد ذلك ارتدَّ على آحاز ملك يهوذا فقاتلهُ ثم تاركهُ الحرب على مال يحملهُ اليهِ وذلك سنة ٧٣٤ . ولما فرغ من امر اولئك الملوك وجَّه الغارة الى المشرق فلم يمرَّ بارضٍ الَّا اذاقها البلاء وظفر بملك اريانا واستحوذ على كثيرٍ من مدنهِ وضياعهِ وما زال ذلك دابهُ الى ان توفي سنة ٧٢٧

وخلفهُ على سرير الملك شلمنأَسر الرابع وقيل الخامس وقيل السادس ومن اخبارهِ ما جاء في اسفار الملوك ايضًا من انهُ زحف على هُوشَع ملك اسرائيل بالسامرة وقهرهُ وضرب عليهِ الجزية فلبث يؤدّيها مدةً ثم انقطع عن تأديتها وبعث الى سوء ملك مصر يستنجدهُ فعاد اليهِ شلمنأَسر وظفر بهِ

وارسلهُ الى السجن مكتوفًا وحاصر مدينة السامرة فمكثت ثلاث سنين تحت الحصار ثم افتتحها عنوةً واجلى من بها من الاسرائيليين الى اشور فانزلهم بحلاح وعلى عدوة خابور نهر جوزان وبثَّ منهم اناسًا في مدائن مادي ثم بعث عصبةً كبيرة من الاشوريين فبوَّأهم السامرة وانقرضت مذ ذاك مملكة اسرائيل آخر الدهر بعد ان دامت مئتين واربعًا وخمسين سنة وكان ذلك سنة ٧٢١ قبل الميلاد. وفي بعض الآثار ان الذي كان فتح السامرة على يدهِ هو صاربوكين خليفة شلمنأسر المشار اليهِ والصحيح في ذلك كما ذهب اليهِ اكثر المحققين ان شلمنأسر توفي اثناءَ الحصار فتمَّ الفتح على يد صاربوكين وكان القائد الاكبر في الجيش فنُسِب الفتح اليهِ

ولما هلك شلمنأسر لم يكن في ولدهِ من يضطلع باعباءِ الملك فتسلق السرير صاربوكين قائدهُ المشار اليهِ وهو المسمَّى في الكتاب بسرجون وعلى يدهِ تمَّ فتح السامرة على ما قرَّرناهُ وكان جملة من اجلاهم من اليهود نحوًا من سبعة وعشرين الف نفس . وكان هذا الملك كثير الغزوات والحروب نهض لاسترجاع ما بقي من فتوح اشور وممالكهم في ايدي الكلدان منذ حين سقط سردنابال آخر ملوك الدولة الاولى على ما سلف ايرادهُ . فدوَّخ جميع ما بين النهرين واخضع ارمينية ومصر وقبرس ونصب في قبرس حجرًا كبيرًا نقش عليهِ صورتهُ مع تاريخ استيلائهِ عليها والحجر المذكور اليوم في برلين . وكان في جميع هذه المغازي والغارات مظفرًا منصورًا ولم يدركهُ الفشل الَّا في حصار مدينة صور فانهُ قصدها ونازلها بجيشهِ زمنًا طويلاً وتفانى من جنودهِ تحت اسوارها خلقٌ لا يحصى وفي عاقبة الامر نفد ما عندهُ من القوت والعلف فتراجع عنها خاسرًا . ولهُ غير ما ذُكِر وقائع كثيرة اثبتها على جدران الابنية التي شيدها بخرساباد يقول في موضعٍ منها. هذه سياقة ما فعلتهُ من لدن استيلائي على زمام المُلك الى منتهى الغزوة الخامسة عشرة من غزواتي . كان استيلائي على المُلك في يوم الخسوف التام (يعني خسوف القمر وكان فيما عيَّنهُ بطليموس في ١٩ آذار سنة ٧٢١) وقد قهرت كمبانيغاز ملك عيلام ثم حاصرت مدينة السامرة واخذتها واجليت ٢٧٢٨٠ نسمة من سكانها. وتحالف هانون ملك غزة وفرعون ملك مصر على قتالي فنازلتهما واوقعت بهما في ارض رافيا فانهزما شرَّ هزيمة وسكنت نأمتهما آخر الدهر. ثم اني ضربتُ على فرعون ملك مصر وعلى شمس ملك العرب ويطعمير ملك الصابئة اتاوةً من الذهب والعقاقير العطرية والخيل والابل والبقر. وبعد ذلك حاول عُبَيد المالك في حماة ان يحرّش عليَّ اهل دمشق والسامرة فزحفت بجنودي المظفَّرة الى كركار وانتشبت بيني وبينهُ وقائع هائلة كانت العاقبة فيها عليهِ فدككتُ سور المدينة واعملت الهدم في سائر ابنيتها حتى رددتها ركامًا ثم قتلت زعماءَ الاحزاب وقبضت على الملك وسلخت جلدهُ عن بدنهِ. ولما ملك إرنزو في وان كانت في حوزة بدي فلما مات بايع الاهالي ابنهُ آسا وعقدوا بينهم وبين أورساما

الارمنيّ حلفًا سرّيًا على ان يمالئهم في ردّ استقلالهم فسرت اليهم بالجيوش الاشورية وضربتهم ونسفت قلاعهم عن آخرها وقبضت على الملك الخائن (يعني ملك ارمينية) وسلخته وقطّعته خراذل واخضعت الجميع لسلطاني . وفي تضاعيف ذلك انتهز آزوري ملك اسوط فرصة اشتغالي باولئك الاقوام وامتنع عن حمل الجزية اليّ فدمّرت مدائنه واستحوذت على آلهته وعلى امرأته وبنيه وكل من ينتمي اليه . ثم اخذتني الرحمة فاعدت عمارة المدائن التي خرّبتها واسكنت فيها الاقوام الذين اجلبتهم من مشارق الشمس وولّيت امرهم واحدًا من قوّادي وادخلتهم في عداد الاشوريين . وبعد ذلك ذكر عدّة مواقع بينه وبين مرودخ بلأدان سنة ٧٠٩ كانَ النصر فيها له واستولى على الفسطاط الذي كان لمرودخ من الذهب وغنم كنوزهُ وذخائرهُ وأَسَر عددًا كبيرًا من جنودهِ ودمّر مدينة دوريا قين بثأر سردنابال . وان ملوك يَطنان السبعة (اي ملوك قبرس) الذين لم يسمع اسلافه بذكرهم بسطوا له يد الاذعان ووفدوا عليهِ بالهدايا والطُرَف من الذهب والفضة والآنية الثمينة وخشب الابنوس وعدّد كثيرًا من الحروب التي عملها بعد ذلك ممّا يطول شرحهُ ولا فائدة في استيفائهِ

وفي سنة ٧١١ بعدما عَنَت له تلك الاقاليم ونفذت كلمته وارتفع سلطانه شرع في بناء مدينة تضاهي نينوى في مجدها الاوّل فاتخذ لها اسباب العمارة وحشد اهل الصناعة من كل اوب وجعل مركزها الى الشمال الغربي من نينوى على مسافة ستة عشر كيلومترًا منها وزيّنها بالقصور الشاهقة والهياكل الباسقة والابنية الفسيحة وشرع في تشييد قصرٍ له ولمن يخلفه على سرير اشور وسماهُ دورصاريوكين اي قصر صاريوكين واتمّ بناءهُ في الثاني والعشرين من شهر تشرين الاول سنة ٧٠٦ وقسمه ثلاثة اقسام زينها كلها بالنقوش والتماثيل واصناف الآنية والتحف النفيسة ونقش على جدرانها صُوَر كثيرٍ من وقائعهِ مع تاريخ انتصاراتهِ وقد استوفينا الكلام على هذا القصر في القسم الاوّل ولا يزال معظمه ماثلاً الى هذا العهد لم يفقد من رونقهِ الاّ القليل

وبعد وفاة صاريوكين استقلّ بالملك ابنه سنحاريب واسمه فيما حققه بعضهم محرّفٌ عن سين اح ريب وسين اسم للقمر كان ملوكهم يزيدونهُ في اوائل اسمائهم تبركًا على ما سلف الالماع اليهِ ومعنى اح ريب اخٌ آخر . وكان سنحاريب ملكًا عظيم الشان شديد الوطأة بعيد الهمة كثير المغازي والفتوح اتى في ايامهِ من عظائم الامور ما لم يأتهِ ملكٌ قبله حتى طار ذكرهُ في الآفاق وامتدّت شوكته الى ابعد الاقطار وتحامت حوزته كبراء الملوك ودان لدولتهِ كثيرٌ من الاقاليم وكان يلقّب نفسه بملك الارض وخليل الآلهة على ما كان من دأب ملوك اشور وبابل في ذلك العهد . واخبارهُ كثيرةٌ طويلة نقتصر منها على ما سنوردهُ في هذا الموضع ميلاً الى الاختصار الذي هو اليَق بحال هذه الرسالة واكثرهُ ملخّص عمّا وُجد له من الكتابات التي كتبها بنفسهِ ممّا خلت عنه اسفار المؤرّخين . قال في

بعض تلك الكتابات ما محصّلهُ . اوّل غزوةٍ لي كانت على مرودخ بلأدان ملك بابل وجيوش عيلام وكانت الواقعة بيننا في بقعة كيش فما تطاول امد القتال حتى اجفل الملك من امامي وفرّ معتصمًا باحد معاقلهِ فلحقت باصحابهِ واطلقت يدي فيهم بالسبي والاسر والقتل وغنمت امواله وخيوله واسلحته وسائر كنوزهِ وذخائرهِ وكان فيها من الذهب والفضة والآنية الثمينة والملابس الملكية شيءٌ كثير. ثم وجّهتُ نفرًا من رجالي فقبضوا على امرأتهِ واعوانهِ وسائر من ينتمي اليهِ من آلهِ وحشمهِ ذكرانًا واناثًا مع الخصيان وخدّام البلاط واسرت بقية الجند كلّهم واخذت الجميع وبعتهم عبيدًا . ثم اني بامداد ربي اشور وحولهِ اقمت الحصار على تسع وسبعين مدينة من مدائن الكلدان الكبيرة وثماني مئةٍ وعشرين قريةً فاخذتها جميعًا وغنمت منها الغنائم الطائلة وسبيت نسآءها وبعت الرجال عبيدًا

ثم انهُ بعد وصفهِ لغزوتهِ الثانية ونصرتهِ في بلاد مادي وارمينية وألبانية وارض البرثيين وكوماجينة اقبل على وصف غزوتهِ الثالثة قال وفي غزوتي الثالثة وجهت بأسي نحو الديار الشامية وعليها يوم ذاك ملكٌ سخيف العزم ضعيف البطش يسمّى ايلولي كان قد بلغ خوفي من قلبهِ كل مبلغ حتى انهُ لما اتصل بهِ خبر مقدمي عليهِ لم يتمالك ان احتمل بنفسهِ وابتدر المفرّ الى احدى جزائر البحر تاركًا لي جميع حوزتهِ وما ملكت يداهُ مغنمًا باردًا . فاخذت مدائن صيدآء الكبرى وصيدآء الصغرى وما يتبعها من المصانع والمعاقل والمياكل ثم عدت عنها واستعملت عليها ابتوبعل على خراجٍ يرفعهُ اليّ

وفي اعقاب ذلك كان ابتوبعل الصيداوي وعبدليت الارواديي وميطنتي الاسوطي وبادول العموني وشمسُ ناداب الموآبي ومُولكَ رامُ الادومي وسائر ملوك فينيقية يتزلّفون اليّ بالهدايا والطُرَف ويعملون في اجتلاب مرضاتي الاّ صدقا العسقلاني فانهُ ذهب بنفسهِ مذهب الكِبر والعتيّ وزيّن لهُ الغرور شقّ عصا الطاعة فزحفت عليهِ بجندي ومخني ربي عنقهُ فقبضت عليهِ وحطمت آلهتهُ وآلهة آبائهِ واسرت امرأتهُ وبنيهِ وبناتهِ واخوتهُ وجميع اعقابهِ معهُ وقفلت بهم راجعًا الى اشور

وفي تلك الغضون ائتمر زعمآء ميغرون وفئةٌ من اشرافها بملكهم بادي ليقتلوهُ لانهم نقموا عليهِ ميلهُ الى اشور واحترامهُ لسطوتها فجاءوهُ الى حزقيا ملك يهوذا وسلموهُ الى يدهِ . وكان لسكان ميغرون طمعٌ في مظاهرة ملوك مصر والحَبَشة لهم اذا شبّت الحرب بيني وبينهم فتأهبوا جميعًا لمنازلتي وحشدوا جيوشهم من كل اوب وخرجوا اليّ بخيلهم ورَجْلهم فالتقينا في بقعة ايلسيكا والتحم بيننا القتال فكانت العاقبة لي عليهم فبدّدت جموعهم واثخنت فيهم قتلاً وجرحًا واسرت منهم وغنمت ما لا يدخل في نطاق حصر. وبعد ان تمزقوا من امامي كل ممزّق وانهزم بنبالي ميروي المصري وولدهُ افبح هزيمة وقد قُتِلَت حاميتها واوشكا ان يقعا في يدي انثنيت الى ميغرون فقتلت من بها من الاكابر وزعمآء الاحزاب وقبضت على اهل الفتنة فبعتهم عبيدًا . ثم ارسلت الى اورشليم في طلب بادي ملكهم فاعدتهُ

الى ملكهِ فاقام في ظلّ باسي وزاد يقينًا ان رأيهُ فيَّ لم يكن الاّ صوابًا

هذا ما كان من امر اولئك الملوك واما حزقيا اليهودي فبقي شامخًا بانفهِ ممتنعًا من الاستسلام لدولتي استعظامًا منهُ لامر نفسهِ واستخفافًا بباسي ومقدرتي . وكانت لهُ اربعٌ واربعون مدينة محصّنة وعلى اسوارها من الابراج المنيعة ما يفوت العدّ . فدهمتهُ بجيش كالجراد المنتشر وخيمت حول تلك المدن وبنيت عليها المتارس وسدّدت اليها آلات الحصار وما زلت اضربها بما أُوتيت من البطش وثبات العزيمة حتى اذقتها من البلآء امرّهُ ومن الضنك اشدّهُ ولم أُولِها فترةً حتى فتحتها عنوةً ودخلتها بسيفي واعملت فيها النار والسلاح وانبثّ رجالي في كل وجهٍ يسبون وينهبون حتى لم يُبقُوا ولم يذَروا . فكان فتحًا كبيرًا لم يُسمَع بمثلهِ فيما مرّ من الدهر وكان جملة ما سبيتهُ وغنمتهُ مئتي الف نفس ومئةً وخمسين نفسًا من كبار وصغار رجالاً ونسآء ومن الخيل والحمير والبغال والابل والبقر والشآء وسائر الغنائم والاموال ما لا يُحصَى عددهُ ولا تقدّر جملتهُ وسقت هذا العديد كلهُ الى اشور وهو المصداق لما كان من ذلك الفتح العزيز والفوز الجليل

وبعد ذلك وجهت الحملة الى مدينة اورشليم دار الملك حزقيا فحبستهُ في داخل المدينة كما يُحبَس العصفور في القفص وابتنيت في ارباض المدينة ابراجًا كثيرة وبثثت رجالي حول السور فاذا خرج احدٌ من المدينة تخطّفوهُ . وفي تلك الاثنآء استعملت على المدن التي افتتحتها بفلسطين ولاةً من اشياعي وهم ميطنتي ملك اسوط وبادي ملك ميغرون واسما بعل ملك غزّة . فاما ما كان من امر حزقيا فانهُ لما رأى باسي وما احاق بهِ من الخطر الشديد ضاقت عليهِ مذاهب النجاة ولم يجد للثبات سبيلاً فأوفد عليَّ رسلهُ يعرضون عليَّ المهادنة والصلح وان اضرب عليهم ما شئت من الاموال ففعلت وجاءوا نينوى دار سلطنتي ومقرّ محكمتي ووضعوا بين يديَّ ثلاثين وزنةً من الذهب واربع مئة وزنة من الفضة وكثيرًا من المعادن الثمينة والحجارة الكريمة واللؤلؤ والياقوت الكبير والعروش الملكية والكهربآء الخالصة وسروج الجلد وجلود البقر البحرية والاخشاب المتنوّعة ومنها خشب الابنوس والجواري الحسان والعبيد الكثيرين ذكرانًا واناثًا . اه

وفي اخبار ملوك يهوذا ما يؤيّد صدق هذا الخبر الاّ ان سنحاريب طوى كشحهُ عن ذكر الفشل الذي لقيهُ عند قصدهِ لاورشليم في المرّة الثانية فانهُ بعد ان عاهد حزقيا على السلم عاد فنكث عهدهُ ووجّه عسكرهُ على فلسطين وأمّ اورشليم وفيها حزقيا فحاصرها حصارًا شديدًا . وملخّص ما جآء في الكتاب انهُ لما اشتدّ الامر على حزقيا وسكان المدينة وبلغ منهم الضنك والضيق وتمادى قوّاد اشور في الوعيد والتهويل على مسمع من الشعب وشتموا اله اسرائيل فزع الملك وبطانتهُ الى اشعيآء بن آموص النبيّ فدعا الله سبحانهُ وتعالى فارسل ملاكهُ فقتل من جيش اشور مئة وخمسة

وثمانين الفًا فلما اصبح سنحاريب اذا جيشهُ جثث امواتٍ فنهض ليومهِ وقفل راجعًا الى نينوى . اه .
وكان ذلك نحو سنة ٦٩٨ قبل الميلاد

وعاد سنحاريب بعد ذلك فلمَّ شعث دولتهِ وجدد رونق ملكهِ ولما اجتمعت لهُ اسباب العزة والصولة جرَّد جحافلهُ وسار بها الى بابل مدينة الفتن فواقعها مرةً اخرى. وكان السبب في ذلك ان سنحاريب لما قهر بابل في النازلة الاولى ولى عليها رجلاً من اوليائهِ يقال لهُ بعليبوس فاستمرَّ امرها في يدهِ الى ان كانت نكبة سنحاريب عند اورشليم وعاد بالفشل والخسران فاغتنم مرودخ بلادان تلك الفترة وحدثتهُ نفسهُ باسترجاع الملك فاخذ في اسباب ذلك وحشد اولياءهُ واتباعهُ وزحف على بابل بجمعٍ كثيرٍ فاستبشر البابليون بعودتهِ وتغيروا عن طاعة بعليبوس وجاهروا بالفتنة والهرج واتصل الامر بسنحاريب فبادر بعَدَدهِ وعُدَدهِ ودهم بابل بجيشٍ لا يُحصَى فبرز اليهِ مرودخ في طليعة اصحابهِ والتحمت الحرب بين الفريقين اياماً وآخر الامر كانتِ الغلبة لسنحاريب فانهزمت جيوش الكلدان وتمزَّق سوادهم بعد ان هلك منهم خلقٌ كثيرٌ وفرَّ مرودخ بلادان وغمض خبرهُ آخر الدهر. ثم دخل سنحاريب بابل فاستأصل منها اعراقَ الفتنة ومهَّد السكينة والطاعة واستخلف عليها ولدهُ اشور ناردين وهو بكر ابنائهِ

ولما فرغ سنحاريب من امر بابل وجَّه غارتهُ ناحية المشرق فامعن في البلاد ووطئ من الاقاليم ما لم يبلغ اليهِ احدٌ ممن سلفهُ حتى انتهى الى داي فدوَّخ تلك الارض جملةً واكثر من اراقة الدماء واتيان الفظائع وشنَّع وسبى ونهب وهدم كثيرًا من المدائن والمعاقل وضرَّم عامَّتها بالنار. ولهُ على بعض الآثار في ذكر هذه الغزاة ما تعريبهُ اني ملكت الرجال والدوابَّ والغنم والبقر وافتتحت المدائن والقُرَى ولم افارقها حتى غادرتها حطامًا

واستقرَّت البلاد بعد ذلك برهةً طويلة صماء عن زعازع الحروب وقديد الجيوش وصلصلة الحديد واستولت فيها الدعة والسكينة وعلا طالع سنحاريب الى اوج سعدهِ وعظم قدرهُ في العيون والمسامع وتمكنت هيبتهُ في القلوب ووقع اجماع المؤرخين على انهُ لم يقم في ملوك اشور من ضاهاهُ سطوةً واقدامًا ولا داناهُ عزَّةً وسلطانًا. وفي تلك الاثناء فتق لهُ عقلهُ ان يجدّد بناء نينوى ويجعلها بحيث لا تقارنها مدينة في العالم فشرع في حشد ارباب الصناعة من البنائين والنجارين والنقاشين وغيرهم وشيَّد فيها من المباني العظيمة والهياكل الرفيعة والقصور الانيقة والبروج الحصينة ما لا يتأتى لاحدٍ صفتهُ وزينها جميعها بالزخارف البديعة والنقوش الجميلة حتى فاقت ما كانت عليهِ من قديم حالها. وقد تقدم لنا عند وصف هذه المدينة زيادة بيان فاقتصرنا هنا عن المزيد

ولما كانت سنة ٦٩٣ توفي اشور ناردين بن سنحاريب خليفتهُ على سرير بابل ارجيبعل وكانت

مدة استيلائهِ عليها حولاً واحدًا ثم دهمتهُ المنية فافضى الامر بعدهُ الى مزيزي مرودخ وكان بابليّ الاصل فتفاقمت على عهدهِ البلابل والمشاغب وجعلت اسباب الفساد تتزايد على الايام حتى اشتدَّ الخطب وتخوَّف سنحاريب سوء العاقبة فلم يبقَ في رابهِ الا ان يستأنف الكرَّة عليهم ويبطش بهم مبادرةً لامتداد الفتنة قبل انساع الخرق والعجز عن تلافيهِ. وكان الفريق الاقوى ممن خرجوا عن طاعتهِ طوائف من الكلدان على اطراف البلاد مما يلي خليج فارس فبدأهم بالحملة وفرَّق عصائبهم ونكب زعمآءهم ومثَّل بهم تمثيلاً فظيعًا وجال في تلك الانحآء فاكثر فيها الدمار واراقة الدمآء وهدم المدائن والصياصي حتى ترك البلاد بسيطًا غامرًا. وبينا هو مشتغلٌ بامر هولآء زادت الفتنة احتدامًا في بابل وانتهزوا منهُ تلك الفرصة فاجتمع لفيفهم وبايعوا بالملك عليهم رجلاً منهم يقال لهُ سوزوب وانفذوا الى كدرناكنتا ملك عيلام يستنجدونهُ على سنحاريب فما كذَّب ان اجابهم بالجيش والسلاح وانضمُّوا كلهم يدًا واحدة وزحفوا لمنازلة سنحاريب فكانت حربًا هائلة تطاير شررها في الآفاق وكثرت فيها المصارع والدمآء وما زال السيف يعمل في الجيشين حتى اجلت العاقبة عن فشل الكلدان فانهزموا شرَّ هزيمة وتبعهم سنحاريب بجنودهِ فافنى منهم خلقًا لا يُحصَى وقبض على سوزوب وساقهُ اسيرًا الى نينوى

وبعد هذه الواقعة ركب سنحاريب وسار الى عيلام لينتقم من كدرناكنتا فاوغل في البلاد واثخن فيها ودمَّر حتى رجفت منهُ الفرائص وطأطأت لهُ المناكب وجعل لا يمرُّ بمدينةٍ الا استسلم اهلها في وجههِ وغدا اعزَّتهم اذلةً بين يديهِ حتى بلغ جملة ما افتتحهُ اربعًا واربعين مدينةً من المدائن الكبيرة. ولسنحاريب على بعض الآثار يصف غارتهُ هذه من جملة كلامٍ ما تعريبهُ. وسطع من تلك الآفاق دخانٌ متواصل ملأ السمآء والارض وطبَّق سحابهُ البسيطة وكان للنيران اججٌ وزفيرٌ اشبه بزمازم الرعد. ولما بلغ كدرناكنتا مقدَم بأسي عليهِ طارت نفسهُ شعاعًا حتى اذا ازدلفتُ من عاصمتهِ وعصفت بهِ ريحي من كل اوب اعتصم بالفرار من وجهي وتوارى في قاصية ارضهِ فشدَّدت الحصار على مدينتهِ وصممت على اخذها . اه . ولم يأتِ على هذا الاثر زيادة على ذلك لكن ورد على غيرهِ من الآثار انهُ بعد ذلك عدل عن اخذ المدينة ورفع عنها الحصار وانقلب راجعًا الى نينوى وذلك لانهُ وجد في ادلَّة التنجيم ما ينذرهُ خوف العاقبة فرضي من الغنيمة بالاياب

وبعد نحو ثلاثة اشهر من مفرّ كدرناكنتا ادركتهُ المنية فبايع العيلاميون اخاهُ اومان مينان وكان اومان مينان هذا خليلاً لسوزوب فلما اتاهُ خبر تملكهِ جعل يردِّد اليهِ رسلهُ واكثر من صلتهِ حتى احتال لهُ في النجاة من قبضة سنحاريب وكان لم يزل مسجونًا في نينوى فلما افلت من محبسهِ انطلق الى عيلام فرحَّب بهِ اومان واحسن مثواهُ وحقق آمالهُ وعقد لهُ على جيشٍ كثيف من

العيلاميين فزحف بهم سوزوب على بابل والتفّ عليهِ اقوامٌ من البابليين فاصبحوا عصبةً منيعة. فلما راى سنحاريب ذلك جنّد جنودهُ وخرج عليهم وقاتلهم قتالاً شديدًا كان هو الظافر فيهِ ايضًا فكسر شوكتهم وفضّ جموعهم وفتك فيهم فتكًا ذريعًا. ولهُ على بعض الآثار في تفصيل هذه الموقعة ما ملخصهُ . لما فوّض البابليون امرهم الى سوزوب الذي يدهُ على كنوز الهرم وابتزّ ما في هيكل بعل وزربانيت من الفضة والذهب وبعث بذلك هديةً الى اومان مينان ملك عيلام في سبيل الاستمالة لهُ والتقرب منهُ ووجه اليهِ بسالة المظاهرة عليَّ ويتظلم اليهِ من استيلاءِ بطشي ووطاة عزّتي وضرع اليهِ في ذلك اشدّ الضراعة حتى مال العيلاميُّ الى شكواهُ وامدّهُ بالرجال والعُدَد فجعل دابهُ العيث في البلاد وركوب الفظائع من القتل والسبي والنهب واستطال على الناس بالبغي والجور فاستوقد بذلك غضبي واثار من حميتي فنهضت اليهم بحنقٍ شديد واتخذت مركبتي الكبرى والقوس التي وهبنيها ربي واهطلت عليهم من النبل ما اوشك ان يسدّ الافق كثرةً حتى سالت بدمائهم البطاح وما لبثوا الاّ قليلاً حتى استسلموا للفرار فملأت يدي من غنائمهم واسرت منهم عددًا لا يُحصَى وقطعت ايديهم حتى لا يستطيعوا ان يعودوا الى حمل السلاح. انتهى ببعض تصرف. وكان في جملة من اسرهم نبو بلارسكون بن مرودخ بلادان فاما سوزوب واومان مينان ففرّا بانفسهما الى عيلام

وفي سنة ٦٨٢ عاد سوزوب الى بابل مرةً ثالثة لتهييج الفتنة فنهض اليهِ سنحاريب وقد اخذهُ من الحنق ما لم يبقَ معهُ موضعٌ للصبر ولا محلٌّ للرفق وانصبَّ عليهِ بجنودهِ فانكسر سوزوب كسرةً لم يقم بعدها وتسلم سنحاريب بابل فضربها ضربًا شديدًا ولم تاخذهُ فيها رحمةٌ ولا شفقة مع ما كان لها عندهُ من الحرمة لانها مدينة الآلهة وولّى عليها ولدهُ أَشُّور ناردين المعروف بأسَرحدُّون وهو رابع ابنائهِ. وبعدما مهّد الامر في بابل انقلب راجعًا الى نينوى فاقام بها زهاءَ سنتين يحكم بالعسف والجور الى ان كان يومًا ساجدًا في هيكل نسروخ فوثب عليهِ ابناهُ أَدرَمِّلك وشَرأَسَر فقتلاهُ بالسيف طمعًا في تولّي الملك من بعدهِ وكان مقتلهُ سنة ٦٨١

وكان من اعقاب ذلك انهُ لما بلغ الامر اسرحدُّون في بابل حشد كتائبهُ وانقضّ بها على نينوى يريد النقمة من اخويهِ وتسلم المدينة بعد ابيهِ فاجفل اخواهُ من وجههِ وفرّا بانفسهما الى ارمينية فقبض اسرحدُّون على زمام نينوى واجتمع لهُ الامر على اشور والكلدان جميعًا . ولما استتبَّ في يدهِ الملك شرع في تقيُّل ابيهِ في الاحكام والغارات وتشييد المعاقل والقصور ولم يلبث طويلاً حتى بلغ من العزّة والسطوة وبُعد الصيت وفخامة الشان ما لم يبلغهُ كثير من عظماءِ الملوك . وكان اسرحدُّون من اشدّ الملوك عزيمةً واعلاهم همةً واقواهم جاشًا وكان على ذلك موفَّق المُقدَم مسعود الجَدّ لم يُخفِق في غزوةٍ ولا توجّهت عليهِ هزيمةٌ مع كثرة غاراتهِ وحروبهِ وبُعد منتزعهِ في الغزوات والفتوح. واخبارهُ

لا يزال الكثير منها الى هذا العهد مسطرًا على الآثار غير انها غُفلٌ من بيان التاريخ ناقصة الشرح في اكثر المواضع الاَّ ما كان منها في اوائل ملكهِ فانهُ اوسع بسطًا مما يليهِ

فما نطقت بهِ تلك الآثار مَّا حكاهُ اسرحدُّون عن نفسهِ قولهُ في بعضها . اول ما اخلدتُ الى الغارات وجَّهتُ طلائع بأسي جهة فينيقية فحاصرتُ مدينة صيدآء التي على فم البحر فدككتُ اسوارها ونسفتُ مصانعها وهياكلها وطرحتُ انقاضها في البحر وقتلتُ من بها من الكبرآء والزعمآء وفرَّ ملِكها عبد الملكوت فاوغل في البحر فتعقَّبتُ مسيرهُ وشققتُ الامواج ورآءهُ شقَّ الاسماك حتى ادركتهُ فقبضتُ عليهِ وجدعتُ انفهُ ثم عدتُ فاستحوذتُ على ما في خزائنهِ من الذهب والفضة والحجارة الكريمة والكهربآء والجلود المطيَّبة بالافاويه العَطِرة وخشب الابنوس والانسجة المصبوغة بالنيل والارجوان واستقتُ من مملكتهِ الرجال والنسآء والبقر والشآء والدوابَّ وسائر ما تهيأً لي نقلهُ وحملهُ الى مملكتي . وبعد ذلك شيَّدتُ حصنًا منيعًا سميتهُ دور اسرحدُّون وشحنتهُ بالرجال الذين اجليتهم من البحر الاعلى من ناحية مشرق الشمس

وبعد ان اتمَّ كلامهُ في هذه الغزاة ذكر انهُ سار من هناك الى مملكة يهوذا يريد التهامها فنازلها وقهر ملكها منسى وقادهُ اسيرًا الى بابل ثم رقَّ لهُ فاعادهُ الى ملكهِ على اتاوةٍ يرفعها اليهِ كل سنة . قال ثم خرجتُ من هناك قاصدًا اقليم وان ونواحي بحر الخزر فدوَّختها جملةً وبينا انا في تلك الاطراف وقد ترامت المسافة بيني وبين مملكتي اغتنم نبوزرسمنات بن مرودخ بلأدان هذه النهزة واغرى من تحت يدهِ من الطوائف القاطنة عند خليج فارس بالنشوز عن طاعتي فانصرفتُ اليهم واوقعتُ بهم ووليتُ عليهم مكان نبوزرسمنات اخاهُ نهيد مرودخ بعد ان ضربتُ عليهِ خراجًا . وعدتُ من بعد ذلك الى بابل فلما بلغتها وجدتُ سجلأت هيكل بورسيبا قد استولى عليها رجلٌ كلداني اسمهُ ساسبني وفرَّ بها الى مدينةٍ يقال لها بيت دكوري فتوجهتُ اليهِ فيها وانتزعتُ من يدهِ السجلأت المغصوبة واعدتها الى موضعها في بورسيبا ووكلتُ الاحتفاظ بها الى نبوسلِّيم بن بعلزو وهو من الثقات القائمين بحرمة الشرائع وصيانة القوانين

ثم قال وكان ابي قد غزا الى بلاد العرب وافتتح مدينة دومة الجندل وهي عاصمة البلاد فجدَّدت الغارة على تلك البلاد وقهرتها وغنمت منها واجليت جمًّا غفيرًا من اهلها . وبعد ذلك وفد عليَّ الرسل من عند ملكتهم يحملون اليَّ الهدايا السنية والبضائع التي يعزُّ وجودها في غير البلاد العربية ويسألونني ان امنَّ عليهم بالاصنام التي غنمتها من ارضهم فاستجبت مسؤولهم وامرت النحاتين فاصلحوا ما تعطَّل منها ثم امرت فنُقِشَت عليها تسابيح اشور وعظائم اسمي المبجَّل . وبعد ان مضت على ذلك مدةٌ من الدهر تغيَّر رأيي فيهم فوجهت اليهم طابويا احدى نسائي تتولى الحكم عليهم وقلت لها

اذهبي فقد جعلتكِ سيدةً على العرب كلهم وعهدت اليها ان تاخذ لي منهم في كل سنة خمسة وستين وقرجل علاوةً على ما كانوا يؤدونهُ الى ابي سنحاريب

ثم ذكرانهُ بعد ذلك توجَّه لتدبير اقليم الحجاز وعاصمتهُ اذ ذاك مدينة يثرب وعليها ملكٌ اسمهُ حسن. فلما قضى نحبهُ قلد مكانهُ ابنهُ يَعْلَى وضرب عليهِ اتاوةً جزيلة . ثم اوغل من هناك في بلاد العرب حتى الى اليمن ودخل حضرموت وغنم منها الغنائم الطائلة وعطف منها على بلاد فارس فدوَّخها واسر بعضًا من ملوكها وقفل عنها ظافرًا مؤيدًا. ولما استقرَّ بهِ المقام في نينوى اقام بها صرحًا كبيرًا جعلهُ مدَّخرًا لكنوزهِ . وفي سنة ٦٨٣ غزا الى قبرس واخضع ملوكها العشرة ثم ارتحل منها الى مصر فادخلها في طاعتهِ وترك فيها قومًا من الاشوريين يكونون سياطرةً عليها ورقباءَ خوف الفتنة

وكان اكثر مقام اسرحدُّون ببابل كما يدلُّ على ذلك كثرة ما لهُ فيها من المباني وهو آخر من اشتهر من ملوك اشور بالفتوح الكبيرة والغزوات البعيدة والابنية الحافلة والزخارف الثمينة حتى يُروَى ان القصور التي من بنائهِ كانت كلها مكسوَّةً بالفضة والذهب تاخذ بالبصر من شدَّة لمعانها . وفي هذه السنين المتأخرة كشف لهُ اللورد لايرد الانكليزي المذكور غير مرَّةٍ في هذا الكتاب قصرًا بناهُ ببابل لعلهُ من اعظم القصور البابلية يقول اهل التنقيب انهُ من صنع الفينيقيين الذين اجلاهم معهُ الى بابل

وفي سنة ٦٦٨ مرض اسرحدُّون واعضلت علتهُ فجمع اليهِ اكابر دولتهِ وعقد بحضرتهم بيعة الملك لولدهِ اشور بانيبال وكان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر ايار ولم يُبقِ لنفسهِ سوى مدينة بابل واعمالها . وكان اشور بانيبال اذا كتب الى ابيهِ يفتتح كتابهُ بقولهِ من اشور بانيبال ملك اشور الى ابي ملك بابل . وعاش اسرحدُّون بعد ذلك سنةً ثم ادركتهُ الوفاة

ولما مات اسرحدُّون خلفهُ على سرير بابل ولدهُ صَلصامغين وهو الذي يسميهِ المؤرخون بصاوصدوخين فلم يستقرَّ في الملك حتى هاجت الفتنة في بابل وهو في مقدَّمة الاحزاب وقد انضمَّ اليهِ تعومان ملك عيلام ومن شايعهُ من الثائرين وهبَّت امم مصر والعرب في طلب الاستقلال وانتشر الشغب في جميع الاقاليم الخاضعة لاشور بانيبال فجرَّد اشور بانيبال جحافلهُ وزحف بها لمقاتلتهم فكانت بينهُ وبينهم مواقع شتى دارت فيها الدائرة على الاحزاب ففرَّق جموعهم واكثر فيهم من النكال وفرَّ صاوصدوخين فلجأ الى اختٍ لهُ كانت لها شفاعةٌ عند اخيهِ اشور بانيبال فتوسل بها اليوان تسأل لهُ الصفح عن صنيعهِ فمنَّ عليهِ وردَّهُ الى ملكهِ . ثم سار الى شوشانة وعيلام ليُحِلَّ بها نقمتهُ على ما لأنها لاخيهِ فقهرها جميعًا وقتل تعومان ملك عيلام وحرَّق كثيرًا من المدائن وعاد الى نينوى وقد انتشرت مهابتهُ في تلك الاقطار

وكان بعد وفاة نعومان قد استولى على سرير عيلام ملكٌ يقال له امانلدس فآلى على نفسهِ ان يقهر اشور بانيبال وجرّد جيشًا كثيفًا وسار بهِ يعيث في الممالك الاشورية واتخذ له معقلاً في الجبال التي بجبال سوزا شحنهُ بالذخائر والعُدَد فثار اليهِ اشور بانيبال بجرٍّ ورآهُ جيشًا من نُخَب قومهِ وسار في البلاد لا يمرُّ بمدينةٍ من مدائن عيلام الاّ اذاقها البلاء واعمل فيها السيف والنار حتى دخل مدينة شوشن وزحف منها الى سوزا فدخلها ووضع السيف في اهلها وغادر فيها جماعةً من قومهِ ثم مضى بطلب امانلدس حتى انتهى الى بانون فلم يظفر بهِ فخرّب المدينة ثم انقلب من هناك فانثنى على سوزا واستحوذ على ما فيها من الكنوز والذخائر وهدم الهيكل الذي بها وكان كعبةً للعيلاميين يحجّون اليهِ كل سنة ونقل ما فيهِ من الاصنام الى نينوى وهو اوّل خبرٍ وقع فيهِ ذكرٌ لمعبودات العيلاميين في تواريخ الامم

ولما فرغ اشور بانيبال من امر العيلاميين صوّب عزيمتهُ نحو عرب الحجاز لِما رأى من امتداد ملكهم وتبسّطهم في اقطار العربية وكانوا قد استولوا على نجد وجبل شمر والجوف وبادية الشام والعراق فكانت بينهُ وبينهم حربٌ عوانٌ اضرمها عليهم مدة ثلاث سنين متوالية فاستولى على الحيرة والعراق باسرهِ وانقضّ على مدائن الشام فاستفتحها واستحوذ على ما يليها من شمالي العربية وزحف من هناك الى نجد فادخلها في طاعتهِ ثم سار في طلب هُوَيتع ملك الحجاز وكان في مدينة يثرب فحاصرهُ فيها زمانًا الى ان ضايقهُ اشدّ المضايقة وسدّ عليهِ منافذ النجاة فاستأمن اليهِ فامّنهُ ودخل المدينة بالسلم ثم طلب منهُ اثنين من قوادهِ فلما حضرا بين يديهِ امر بهما فسُلِخَت جلودهما وهما حيّان ثم امر فصلبوهما وانصرف قافلاً الى نينوى

واستقرّ اشور بانيبال بعد ذلك في نينوى وقد كلّ من كثرة الغارات والمعارك وانصرف الى النظر في توثيق امر الملك وتوفير اسباب الدعة والثروة في رعيتهِ واخرج الذهب الذي غنمهُ في مغازيهِ فابتنى بهِ مباني من جملتها قصرٌ جعلهُ مستودعًا للصحف والسجلاّت وشحنهُ بالآجرّ المسطرة عليهِ تواريخ الاشوريين واتمّ القصر الذي شرع فيهِ سنحاريب جدُّهُ . ثم توفي سنة ٦٤٧ وكانت مدة ملكهِ احدى وعشرين سنةً فتولى مكانهُ اشور دبليلي الثالث ابنهُ المعروف عند اليونان بخنيلادان

ولما اتصل خبر وفاتهِ بفراورتس ملك مادي اغتنم تلك الفرصة فجهّز جنودهُ وسار الى فارس وكانت في حوزة الاشوريين فاجلاهم عنها واخرج من كان منهم في المصانع والقلاع واستولى على البلاد فاشتدّ ساعدهُ وقويت شوكتهُ ومذ ذلك شرع في تعزيز نجدتهِ وتكثير عددهِ وتوفير الاسلحة والذخائر الى ان كانت سنة ٦٣٥ فحدّثتهُ نفسهُ ان يزحف على نينوى اقتداءً بما فعل ارباش احد اسلافهِ فالّب جموعهُ ونزل عليها فبرز اليهِ اشور دبليلي والتقى الجيشان في مضيق جبلٍ فاقتتلا

قتالاً شديدًا كانت العاقبة فيهِ لاشور فانهزم جيش الماديين وتبعهم الاشوريون فمزّقوهم كل ممزّق وقُتِل فراورتس ملكهم . ومات اشور دبلبلي سنة ٦٢٥ بعد ان ملك اثنتين وعشرين سنة ولم يقع الينا من اخبارهِ غير ما ذُكِر

وبعد وفاة اشور دبلبلي افضت نوبة الملك الى اساراقس وهو آخر ملوكهم فما كاد يستقرُّ على سرير المملكة حتى عادت جيوش مادي وفي نجدتها كتائب الكلدان فانقضّت على نينوى في عددٍ لا يُحصى وفي مقدّمتهم كياكصر ملك مادي على ما قدّمناهُ في الكلام على نينوى فلبثوا حول اسوارها اشهرًا حتى بلغ الجهد من الاشوريين واعياهم الدفاع عن المدينة فدخلها كياكصر عنوةً وكان من امرهِ فيها ما ذُكِر هناك. وفي روايةٍ انهُ بينما همَّ بدخول المدينة اذ وفدت عليهِ الرسل من قومهِ بان التتر والاكراد قد اغاروا على بلادهِ وانبثوا فيها من كل اوب يقتلون وينهبون فاعجلهُ ذلك عن اخذها واسرع الاوبة الى ارضهِ فاقام فيها يقاتل نحوًا من تسع عشرة سنةً حتى دفع الثائرين واطمأنت البلاد . وكانت نينوى في تضاعيف ذلك لا تزداد الا وهنًا وهرمًا فلما فرغ كياكصر من نوبة التتر عاود الكرّة الى نينوى وقد عقد عزمهُ على ان ينسفها من أُسّها ويدكّها دكّةً لا تقوم بعدها ليكفي البلاد عسف الاشوريين واستطالتهم فما تمادى امر حصارهِ لها حتى خرّت بين يديهِ فدخلها بجيوشهِ واطلق يدهُ فيها بالقتل والسبي والحريق والهدم حتى اعادها قاعًا صفصفًا

ذكر الدولة البابلية الثانية

قد اسلفنا ما كان من امر بعليزيس واستيلائهِ على البلاد الاشورية بعد تدميرهِ لنينوى ولبثت اشور في طاعتهِ الى ان تُوفي سنة ٨٤٧ على ما مرَّ في موضعهِ بعدما ملك احدى واربعين سنةً فتولى الامر بعدهُ رجلٌ من سلالة المُلك يقال لهُ نبونصّر وكان من امرهِ انهُ اول ما تولى الملك امر باحراق السجلات والكتابات المحفوظة ليمحو ذكر كل من ملك قبلهُ من الاجانب على بابل وتقدم الى روساء الامة ان يبدأوا بتاريخ جديد يفتتحونهُ من ٢٦ شباط من السنة المذكورة وهو اليوم الذي رقي فيهِ سرير الملك وكان ذلك في اليوم السادس من تأسيس رومية ام المدائن. وفي السنة الاولى من ملكهِ نهض تغلث فلاسر الرابع وحرر اشور من قبضة الكلدان بعد قتالٍ دام بين الفريقين الى سنة ٧٤٣ على ما تقدم الكلام عليهِ. وبعد وفاة نبونصّر هذا خلفهُ على الملك ابنهُ نادبوس ثم عقبهُ ثلاثة ملوك افنوا ايامهم بالمعارك والفتن وراح كلهم شهيدًا وكانت مدة ملكهم جميعًا كما قيّدهُ بطليمس اليوناني اثنتي عشرة سنةً

وكانت اشور في هذه المدة كلها تتربص نهزةً للتملّص من عسف الكلدان الى ان قام صاريوكين

على سرير اشور فجهّش على دور ياقين واخذها واستتبع اكثر بلاد الكلدان فلبثت مذ ذاك تحت طاعة الاشوريين. وملك بعد صار يوكين سنحاريب وبعدهُ اسرحدُّون ثم اشور بانيبال ثم اشور ديلِيلي وبابل في هذه البرهة كلها لا تزداد الاّ ذلاًّ ومهانةً . وفي ايام اشور ديليلي انتشر اقوامٌ من البربر في البلاد الكلدانية واكثروا فيها من العيث والفساد فارسل اشور ديليلي رجلاً من قِبَلهِ يقال لهُ نبوبولصَّر وجهَّزهُ بالجند والاسلحة وامرهُ بقتالهم ودفعهم وقلّدهُ الامر على بابل فما زال حكمها في يدهِ الى ان تُوفي اشور ديليلي سنة ٦٢٥ فاستبدَّ نبوبولصَّر بامر بابل وامتنع من طاعة الاشوريين ثم تزلَّف الى كياقصر ملك مادي فشدَّ ازرهُ وحالفهُ ثم عقد لبختنصَّر بن نبوبولصَّر على ابنتهِ فتوثَّقت بينهما عقدة الولاء. وفي اثناء ذلك جهز الفريقان على نينوى كما تقدم خبرهُ الى ان اشتغل كياقصر بامر التتر وتراجع عن نينوى فسار نبوبولصَّر بمن بقي من الجيش حول اسوارها وقصد الفتوح الاشوريَّة من ممالك الكلدان وغيرها فجعل يتملك منها حتى ادخلها في حوزتهِ ولم يبقَ في يد اساراقس الاَّ نينوى واعمالها

وفي اواخر ملك نبوبولصر وفدَ من مصر جيوش جرّارة انقضَّت على اليهود فاذاقتهم البلاء ثم انتشرت من هناك لاتلوي على موضع الاَّ تركت فيهِ آثارًا من العيث والدمار حتى وصلت الى كركميش عند الفرات فاستحوذت عليها وحصنتها استعدادًا للوثوب على بابل على حين غفلة. فتخوَّف نبوبولصر عاقبة امرهم واذ رأى نفسهُ شيخًا سلَّم قيادة الجيش الى ابنهِ بختنصر ووجَّههُ بالأهبة والرجال فزحف الى كركميش حتى التقى بهم واصطلت بين الفريقين مواقع شديدة كان الفوز فيها لبختنصر فاهلك منهم خلقًا لا يُحصَى وفرَّ الباقون بانفسهم وتشتتوا في البلاد . وفي غضون ذلك نُعي اليهِ خبر وفاة ابيهِ فبادر الاوبة الى بابل وكان كبرآؤها وشيوخها يتوقعون مقدمهُ فتسلم ازمة الملك بعد ابيهِ وتوجه لعقد الامور وكان ذلك سنة ٦٠٧ قبل الميلاد . وفي تلك السنة جهز جيوشهُ وسار بها الى البلاد الشامية فادخلها في طاعتهِ ثم توجه الى اورشليم وعليها يومئذٍ الياقيم او يهوياقيم فقبض عليهِ واوثقهُ بسلاسل من نحاس في نية ارسالهِ الى بابل فافتدى نفسهُ بمالٍ يرفعهُ اليهِ كل سنة فمنَّ عليهِ وردَّهُ الى ملكهِ . وبعد ثلاث سنين امتنع الياقيم من حمل المال اليهِ فاستانف بختنصر الحملة عليهِ وسيَّر اليهِ جيشًا كثيفًا فنزل على اورشليم وحاصرها حصارًا شديدًا وفي تلك الاثنآء توفي الياقيم فتولى موضعهُ ابنهُ يهوياكين ولبثت المدينة تحت الحصار اشهرًا الى ان رأى بختنصر ان الامر قد تطاول جدًّا فنهض بنفسهِ وجند جندًا غير الذي مع قوادهِ وسار الى اورشليم وضايقها اشد المضايقة حتى بلغ من اهلها الضنك واعياهم الثبات على مقاومتهِ فخرج اليهِ يهوياكين بنسآئهِ وعبيدهِ وقوادهِ وخصيانهِ فقبض عليهم بختنصر وارسلهم جملةً الى بابل واجلى معهم عشرة آلاف نفس من اهل اورشليم من

رؤساء وجبابرة وصناع وغيرهم ما خلا اقواماً من الصعاليك خلفهم في المدينة وملَّك عليهم متنيا عم يهوياكين بعد ان اخذ عليهِ المواثيق والايمان الموكدة وسماهُ صدقيا واستولى على جميع ما وجدهُ من ذخائر بيت المقدس وكنوز الملك وانقلب راجعاً الى بابل وكان ذلك سنة ٥٩٩

فلبث صدقيا مالكاً على اورشليم تسع سنين خاضعاً لبختنصر ثم سولت لهُ نفسهُ الخروج عن طاعتهِ فجاهر بالعصيان وارسل الى حُفرَع فرعون مصر يستصرخهُ فاشتدَّ ذلك على بختنصر وعزم على نسف اورشليم من آساسها وان لا يُبقي لها باقيةً تُذكَر ولم يمضِ على ذلك الاَّ اليسير حتى احاطت جيوشهُ باورشليم وبنوا عليها البروج ونصبوا الدبابات والمجانيق فاقامت تحت الحصار ثمانية عشر شهراً حتى اشتدَّ الجوع في المدينة وذاقوا من الويل ما لم يبقَ معهُ للصبر طاقة فعمدوا الى ثغر السور وفرَّ جميع المقاتلة ليلاً وفيهم الملك . وكان جيش الكلدان محدقاً بالمدينة فتتبعوهم وادركوا الملك في برية اريحا وقد تفرَّقت عنهُ جميع جيوشهِ فقبضوا عليهِ وقادوهُ الى ربلة من ارض حماة وكان بها بختنصر فقتل بنيهِ على مرأى منهُ ثم فقأ عينيهِ قائلاً ليكن هذا آخر ما تراهُ من الدنيا وبعد ذلك قيدهُ بسلسلتين من نحاس وسيَّرهُ الى بابل . ثم وجه بختنصر واحداً من قوادهِ يقال لهُ نَبوزَرادان الى اورشليم فاحرق بيت المقدس وبلاط الملك وكل بناءٍ باورشليم ودكَّ اسوارها الى الارض واجلى من بقي من يهوذا الى بابل ولم يبقِ الاَّ شرذمةً من مساكينهم ليكونوا أكَرَةً في الارض واستعمل عليهم جدَليا بن احيقام وحمل كل ما كان في الهيكل من اعمدة وآنية وبعث بهِ الى بابل وقاد من وجدهُ من اكابر اليهود الى ربلة فقتلهم بختنصر عن آخرهم

ولما ذاق بختنصر حلاوة النصر وآنس طالع الفوز وجَّه بأسهُ ناحية فلسطين يريد التهامها لما رأى بها من الثروة والنعيم وانزل جيشهُ على مدينة صور وساق اليهِ القوات من العجلات والاسلحة وامدَّهُ بالعديد والنفقات واقام يحاصرها نحواً من ثلاث عشرة سنة حتى دخلها عنوةً فاسرف فيها بالنكال والهدم والحريق وسبى منها وغنم الغنائم الطائلة وكان هذا الفتح سنة ٥٧٤ . وبعد ذلك زحف على الاقاليم الموآبية والعمونية وكانوا قد اعدوا اليهود على قتالهِ ايام حصارهِ لاورشليم فقاتلهم واكثر فيهم من النكاية والقهر ثم سار الى البلاد العربية فدخل الحجاز واليمن ونجد وعاد عنها مظفَّراً غانماً ولم يدع موضعاً في آسية الغربية الاَّ تغلَّب عليهِ وقهر اهلهُ

ولما فرغ من هذه المعارك وقد اطمأنت البلاد بين يديهِ ودانت الملوك لشوكتهِ قفل الى بابل ومعهُ الاسرى من كل اقليم وامة وصرف همهُ الى عمارة البلاد فتوفر دخل الدولة خراجاً وغلةً واكثر من المباني المزخرفة والمصانع المشيَّدة حتى اصبحت بابل منقطعة القرين في الثروة والعزَّة وقد ذكرها هيرودوطس اثر سياحتهِ في القرن الخامس قبل الميلاد فقال وبابل مدينة متناهية

في الفخامة والجلال لا يُتصوَّر ان تحاكيها مدينةٌ في رونقٍ وسعة حضارة . وكان الاسرى والغرباء في عهدهِ يتولّون الامارات والمناصب العالية كما هو جارٍ بين الاتراك لهذا العهد وحسبنا ثبتًا في ذلك ان دانيال اليهودي عم كان وزيرًا في بلاط الملك تنفذ كلمتهُ في ام الكلدان بلا معارض

وكان بختنصر من اجلّ الملوك قدرًا واعلاهم همّةً واسعدهم طالعًا الاّ انهُ في آخر مدتهِ غلبت عليهِ الخُيَلاءُ والزهو وفيما رواهُ دانيال عم انهُ بينا كان في بعض الايام يختال في قصرهِ تيهًا وبين يديهِ بابل يرى عظمتها وفخامتها اخذت من نفسهِ نشوة الكبر ونزت في راسهِ سَورة العُجب وقال في نفسهِ هذه بابل مقرُّ سلطاني ومباءة مجدي قد شيدتها بقدرتي وعزّزتها بجلالي فاي ملكٍ يضاهيني في قوة السلطان وعزّة الحول . ولحينهِ وقع عليهِ صوتٌ من السماء يقول له اعلم يا بختنصر ان ملكك هذا سيُنتزَع من يدك وعن قليل ستكون منفيًا من بين أظهُر البشر ويكون البنك وحش الصحراء وتاكل العشب كالثيران وتمضي عليك سبعة ازمنة (كذا) وانت في هذه الحال حتى تعلم ان المُلك لله يؤتيهِ مَن يشاء . فلما سمع بختنصر هذه المقالة دهش واختلّ عقلهُ وخرج فهام في الارض لا يأوي منزلًا ولا يألف إنسًا حتى انقضى الاجلُ المضروب له فثاب اليهِ رشدهُ وعاد الى بابل وتسلّم ازمة الملك من يد بعل بسروق الذي كان قد ناب عنهُ في تلك المدة وملك بعد ذلك سنةً ثم ادركتهُ الوفاة لثلاث واربعين سنة من وفاة ابيهِ . انتهى ببعض زيادة

وبعد وفاة بختنصر افضت نوبة الملك الى ابنهِ البكر أَوِيل مَرُودَخ وكان في مدة مرض ابيهِ قد سُجِن في محبس يهوياكين ملك يهوذا فلما استقلّ بالامر رفع شأن يهوياكين واعلى منزلتهُ على سائر من عندهُ من الملوك الذين اسرهم ابوهُ وجعل له وظيفةً دائمة في بلاطهِ . وكان اويل مرودخ متفرّغًا للملاهي قليل الاكتراث بشرائع الامة حتى روى بيروسوس انهُ وطئ بنعلهِ كتاب السنة التي جرى عليها سلفاؤهُ فكان ذلك داعيةً الى حنق الامة عليهِ فثاروا باجمعهم يطلبون قتلهُ فظفروا بهِ وقضوا عليهِ بعد سنتين من وفاة بختنصر. وكان في مقدمة الثائرين عليهِ نريكليصر بن بعل بسروق المقدم ذكرهُ وكان صهرًا لاويل مرودخ متزوجًا باختهِ فتسلّم الملك من بعدهِ واستقرّ على سرير بابل . وكان الماديون في ذلك العهد قد اشتدت شوكتهم وتعاظم شانهم فحدّثتهُ نفسهُ ان يزحف لقتالهم اقتداءً بما فعل الذين سلفوهُ من ملوك بابل وانفذ رجالًا من قومهِ يتجسّسون ما عند الماديين ويستبطنون دِخلتهم وارسل الى حلفائهِ من الملوك يسالهم النجدة فلبّوهُ ووجه اليهِ كريسوس ملك ليدية جيشًا كثيفًا فنهض بجرّ جحافله حتى وفد على ارض مادي. وكان الماديون على بيّنة من قصدهِ فارسل كياكصر ملكهم الى كمبيز ملك فارس وكانت بينهما مصاهرةٌ ان يوافيهُ بالعدة والعدد فوجه اليهِ ثلاثين الفًا من الجند يقودهم قورش ابنهُ وانضموا جميعًا يتهيّأون لمقاومة نريكليصر . فلما التقى

الجمعان اقتتلوا قتالاً شديدًا وكان نريكليصر في مقدمة حاميته فاصابهُ رجل من اتباع قورش بنصل خرق صدرهُ فخرّ لساعته صريعًا وانفضّ جيشهُ وتبعهم جيش مادي فمزّقوهم كل ممزّق وعادوا عنهم بالاسرى والغنائم وكان ذلك سنة ٥٥٥

وملك بعد نريكليصر ولدٌ له اسمهُ لَبُورَسَرْخَد وكان صبيًّا دون البلوغ فعبث بالمُلك وقتل جمًّا غفيرًا من كبراء دولته ونبلاء عصره لغير جريرة او لبَدَوات صبيانيّة حتى قيل انهُ قتل ابن قائد جيشه لانهُ اصاب في الصيد طيرًا لم يصبهُ هو. ولمَّا سئم الكلدان امرهُ تمالأوا عليه وخلعوهُ لتسعة اشهر من ملكه وبايعوا مكانهُ ملكًا آخر اسمهُ نبونيدس من اعقاب بختنصر. وكان قُورَش الفارسي في تلك الاثناء قد اغزى الى اكثر الممالك بآسية فالحقها بسلطنته ولم يبق الّا بابل فتقدم اليها بجيشه المنتصر سنة ٥٣٨ واقام الحصار على سورها الداخليّ المحدق ببورسيبا ففوض نبونيدس إمرة الجيش الى ابنه بلطشصر واقامت المدينة تحت الحصار ما شآء الله الى ان رأى قورش ان لا سبيل الى اخذها عنوةً فعاد الى استنباط الحيلة حتى اذا كان في ليلة عيدٍ للكلدان وقد اشتغلوا بالملاهي والشراب دخل المدينة من مآء الفرات فلم يشعر الناس الّا واسلحة قورش تخطفهم من كل جانب فقُتِل بلطشصر ونجا ابوهُ الى بلاد الكِرمان فقضى غابر حياته هناك ومذ ذاك اضمحلّت كلمة الكلدان فلم يعقَد لهم ملكٌ ولم تثبت لهم جامعة

انتهى

